جريمة بلا مجرم

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : جريمة بلا مجرم
اسم المؤلف: محمد الرويضي
التدقيق اللغوي: ريهام مصطفى
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٦١٤٧ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٦٧-٩

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر

01020439639

massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

جريمة بلا مجرم

محمد الرويضي

مَسَار
للنشر و التوزيع

أحداث الرواية كلها خيالية ولا تمتُّ إلى الواقع بصلة

تنبيه:

كل المعتقدات والأفكار والألفاظ الواردة في هذه الرواية تعبر فقط عن وجهة نظر شخصيات الرواية

فلا يجوز تقليد أي خطأ من أي نوعٍ داخل الرواية سواء أكان معتَقدًا أو فكرًا أو لفظًا أو غير ذلك.

• لندن

يناير ٢٠١٣

الواحدة والنصف بعد منتصف الليل

دَوَّى صوت القطار كأنه وحشٌ جائع سيلتهمني، ارتديتُ قبعتي وقمتُ مسرعًا..

حين نزلت من القطار لم أكن أفكِّر إلا في الجريمة الشنعاء التي أخبرني بها ماركوس ذلك الصباح، إنها جريمة قتل من الدرجة الأولى في القسوة، من المؤكد أن القاتل قد قام بقتل الإنسان الموجود بداخله أولًا حتى يستطيع أن يقتل بتلك الطريقة البشعة..

ناظرًا في ساعة يدي حاولتُ تسلُّق الطريق الذي أحسست أنه جبل من شدة التعب ولم أتفاجأ حين وجدتُ عقرب الساعة قد مات من شدة البرد، هل فعلًا توقفت ساعتي بسبب برودة الجو؟!

كان ذلك محتملًا بنسبة لا يستهان بها، فدرجة الحرارة أو بمعنى أصح درجة البرودة كانت فقط ٣١ درجة تحت الصفر!

لم يكن هناك أشد برودة من ذلك إلا دماء ذلك المجرم الذي قتل ضحيَّته بدمٍ باردٍ تخطت درجة برودته الألف درجة مئوية تحت الصفر..

رجلاي كانتا لا تبصران شيئًا وكنت لا أشك بأنني سوف أتعثَّر قريبًا جدًا، كنت لا أشك أيضًا بأنني سوف أسقط ميتًا إذا ناداني شخصٌ ما فجأة في ذلك الظلام الدامس...

– جون، جووون، جووووون.

نادتني بأعلى صوتها فانتزعني الصوت مني فأصبحتُ شخصين، شخصٌ يريد أن يهرب وشخصٌ يريد أن يموت، لا يهمني سوى التخلُّص من عقابها.

–أيها الخنزير الصغير أعلم أنك هنا، إذا لم تخرج الآن سوف أشويك حيًّا.

كنت مختبئًا في المكان الذي أختبئ فيه كل يوم كنت أعلم أنها ستشويني بالفعل إذا لم أخرج، فخرجتُ وأنا أحسد كل الذين خرجوا من الحياة في تلك الساعة

– لماذا تصرخين هكذا هل جُننتِ؟

–هذا الخنزير لم ينظف البيت كما أمرته

هذا الخنزير يريد أن يأكلكما، ولكن كيف لخنزير أن يأكل دُبَّين؟! قلتُ في نفسي.

– ألم أقل لكِ مرارًا إن ضربكِ لا يُجدي؟

– هل تريد أن أفعل مثلك؟ هل تريد أن أقتله فأسجَن مدى الحياة؟ لقد كدت تقتله قبل ذلك من شدة الضرب.

– ليته مات، ليتنا لم نُنجبه.

حوَّل وجهه نحوي كأنه دبٌّ غاضب، ثم قال:

– هل تريد أن تهرب؟

أخبرته عيني التي سبقتني بالهرب بعيدًا نحو الغابة..

أخبرتني عينه كذلك بشيءٍ لم أصدّقه، كان ينظر إليَّ خائفًا، لقد كنت أرى الخوف في عينه بوضوح، اكتشفت بعد لحظات أنه لم يكن ينظر إليَّ أنا وإنما كان ينظر إلى كلبٍ يقف خلفي مباشرةً.. تقدَّم الكلب وتأخرتُ زاحفًا على ظهري، ووقفًا معًا يواجهان الخوف الذي ربَّياه لي كلبٌ صغيرٌ هو الآن كلبٌ كبير يريد أن يأكلهما، كلب أرسلته الغابة إليّ، الغابة التي لم ألعب بجوارها أبدًا خوفًا من الكلب!

يومها هربا إلى البيت وهربتُ أنا منه..

كانت الأمطار تهطل بكثرة، لم أراها تهطل كذلك قط، على كل حال لم تكن بقدر دموعي التي هطلت في عشر سنين، غسلت الأمطار أوساخي ولم تغسل ذنبهما، ذلك الذنب الذي التصق بي كأنه ذنبي، ذلك الكابوس الذي كان يأتيني في اليقظة كلما كان الطريق طويلًا...

– جون، جووون، جووووون.

كم كان رائعًا أن يوقظني صوتها من ذلك الكابوس، كانت تقف في شُرفة البيت حين نادتني من بعيد، بيتنا كلاسيكي الطراز لم يكن سوى طابقين فقط بلون أزرق ونوافذ طويلة، فُرشت أمامه سجَّادة خضراء مليئة بالورود والأزاهير الفوَّاحة، لم نكن في حاجة إلى حارسين، الشجرتان العملاقتان تكفَّلتا بذلك أمام البوابة التي وصلنا إليها معًا حين قالت:

– قلقتُ عليك كثيرًا.

لم أجد كلمات إلا:

– لا داعي للقلق، ها أنا ذا فلندخل الجو بارد

كانت كلماتي أشد برودة من الجو، تجمَّدت للحظة في مكانها بسبب برودة كلماتي، فقرأتُ في عينيها عبارة واضحة: الحساب سوف يجمع بالداخل، ١٪ فقط من ذلك الحساب كان من أجل برودة الكلمات وبقية الحساب كان من أجل الفواتير الزوجية المتأخرة والتي كانت عبارة عن تأخُّر ست ساعات كاملة.. هل تدري ما هو الإمتحان الأصعب على الإطلاق؟

إذا لم تكن متزوجًا فستكون إجابتك:

أصعب امتحان على الإطلاق هو امتحان القبول بكلية الأرواح في جامعة أكسفورد، أما إذا كنت متزوجًا فإجابتك حتمًا ستكون:

أصعب امتحان في تاريخ البشرية جمعاء هو امتحان الزوجة.

سوف أوضح لغير المتزوجين طبيعة امتحان الزوجة في عُجَالة:

إذا أجبت على أسئلتها الألف إلا سؤالًا واحدًا فأنت راسب!

وإذا أجبت على جميع أسئلتها، فأنت راسب أيضًا!

لأنها ببساطه لن تصدق كل إجاباتك..

أما إذا امتنعت عن الإجابة فأنت التلميذ التعيس الذي لن ينام حتى يجيب.

والخلاصة:

النجاح في هذا الامتحان مضمون بنسبة صفر بالمائة لجميع الأزواج بما فيهم أينشتاين نفسه، بل بما فيهم وليام جيمس سيديس نفسه، الرجل الذي اُعتبر أذكى شخص في تاريخ البشرية والذي التحق بجامعة هارفارد المرموقة في سن الحادية عشرة فقط! والذي أيضًا كان مُلمًّا بأكثر من أربعين لهجة ولغة!

بعدما عبرنا الحديقة صعدنا إلى الشقة في الطابق الثاني وما إن فتحنا الباب حتى وجدنا في استقبالنا الحسناء ذات الحسنات البُنيَّة،

صالة الشقة البيضاء التي تناثرت فيها الوسائد بُنيَّة اللون، كانت أمامنا مباشرة غرفة الجلوس منفردة، أما غرفة النوم فجاورها الحمَّام، وجاور المطبخ غرفة الطعام التي دخلناها في تلك اللحظة حين قالت مارجريت وهي تجلس على المائدة:

- هيا لنأكل لقد تأخرنا ست ساعات فقط

أول الغيث قطرة، كانت تلك الجملة هي القطرة التي تُنبئ عن هطول أمطار النَّكد بعد قليل، بدأنا نأكل نحن الثلاثة أنا ومارجريت والإجهاد، الإجهاد الذي التهم أغلب طاقتي في ذلك اليوم الطويل بدأ يكمل وجبته معنا على المائدة، وكان من الواضح أنه سينهيني قبل أن أنهي أنا وجبتي وسأسقط على المائدة بدلًا من السرير.. تعمَّدتُ عدم النظر في عينيها في أثناء الأكل وكانت تلك رسالة واضحة لها ألا تتكلم، على الأقل حتى أنتهي من الطعام وأضع الملعقة، كان ذلك هو النصف الأول من الخُطّة وقد مرَّ بنجاح غير مسبوق، كنت لا أكاد أصدق أن مارجريت صمتت كل ذلك الوقت، وكان السبب الوحيد المنطقي هو أنها كانت مشغولة بوضع خُطّة الهجوم، وقبل أن تبدأ تنفيذ خطتها بدأت أنا بتنفيذ النصف الثاني من خطتي فلم أضع الملعقة على المائدة حتى لا أثير انتباهها، وقمت مسرعًا والملعقة في يدي متجهًا إلى غرفة النوم ولكن كأسرع سلحفاة في التاريخ..

كنت أظن أنها سترحمني بعدما رأتني تحولتُ إلى سلحفاة، لكنها لحقت بي قائلة:

- جون، لابد أن تخبرني أين كنت

لا أدري كيف استطعتُ تحريك لساني قائلًا:

- مارجريت، أرجوكِ لا أستطيع

كنت أعلم أنها تشك في وجود امرأة أخرى..

دخلتُ إلى غرفة النوم أبحث عن السرير الذي وجدته بحاسة اللمس، فارتميتُ عليه بحذائي

هل تعلم ما هي الحسنة السيئة؟

إنها الغَيْرَة!

الغَيْرَة مثل النار التي هي أحسن حسنة في يناير إنجلترا حين تستدفئ بها لكنها تتحول إلى سيئة حين تسهو فتُلسَع وربما تحترق فتكون أسوأ سيئة في حياتك..

لقد سهوتُ اليوم ست ساعات كاملة والآن أُلسع، قلتها في نفسي كنا على وَشْك الاحتراق معًا حين قالت:

- إما أن تخبرني لماذا تأخرت وإما أن تطلِّقني.

بعد كلمة طلِّقني التي أطلقتها كالطلقة كان لابد أن أقولها، نعم كان لا بد أن أقول تلك الكلمة وأستريح، تلك الكلمة كانت كفيلة بأن تسكتها سنة كاملة، على الأقل ستسكتها حتى الصباح..

رفعتُ وجهي نحوها بعينين مغلقـتين وبفمٍ نصف مغلَق قلت:

وجدوا جثَّة في الضباب بها ثمان وتسعون طعنة

***

استيقظتُ متأخرًا ساعة كاملة عن موعدي المعتاد بعد أحداث ليلة أمس التي لا تُوصف إلا بليلة الجليد والنار، جليد يناير ونار مارجريت..

هل تعلم ما هي النار التي لم تنطفئ منذ بَدْء الخليقة حتى اليوم؟

إنها نار الغَيْرَة..

استطعت إطلاق النار على الكثير من عتاة المجرمين وقتلهم، لكن لم أستطع إطلاق النار على تلك الغَيْرَة وقتلها، والسبب الصادم هو:

كيف أطلق النار على نار!

لا يطفئ النار إلا الماء، إذًا هل أذهب ثم أقذف مارجريت بحفنة من الماء في وجهها؟ النتيجة ستكون كارثية لأن تلك الحفنة الصغيرة من الماء ستزيد النار اشتعالًا وستقذفني هي بالحمم فتقتلني، إذًا أحتاج إلى ماء كثير فهل اذهب ثم أقذف مارجريت نفسها في نهر التيمز(١).*؟ سأكون قد قتلتها كذلك كان سينتهي بنا الحال إما أن تقتلني وإما أن أقتلها وإما أن نُقتل معًا بطلقة واحدة اسمها "الطلاق".العجيب في الأمر أننا كنا من المسيحيين الكاثوليك، ومن المعروف أنه لا طلاق في المسيحية ومع ذلك فمارجريت لم تكن تردِّد كلمة أكثر من ترديدها

١ نهر التيمز: هو نهر في المملكة المتحدة يمر بمدينة لندن.

كلمة "طلقني" وذلك بسبب أنني لم أكن كاثوليكيًّا قبل زواجنا وذلك ما جعل الطلاق ممكنًا بيننا!المدهش أيضًا أنه عند وجود فِرَاق بين الزوجين في الطائفة الكاثوليكية ليس هناك كلمه تسمى الطلاق، وإنما يتم الانفصال بدون ذكر الطلاق من أي من الطرفين لكنَّ مارجريت كانت تتلذذ بكلمة "طلقني"! تلك القضية التي تُسمى "طلقني" كانت قضية معقَّدة جدًا، كنت أظن أن الزمان من الممكن أن يتولى التحقيق في تلك القضية أفضل مني، كان لديَّ أمل أن تنسى مارجريت كلمة "طلقني" بمرور الزمن فقررت ترك القضية للزمن؛ لأتفرغ للقضية المرعبة التي توليت التحقيق فيها أنا وماركوس صديقي كفريق..

مرتشفًا القهوة في مقهى كوستا الواقع في شارع فوكسهول بريدج جلستُ أراقب المارَّة بعين محقق بحثًا عن القاتل الذي لا يوصف بالهستيري ولا حتى بالمجنون، بل لو خلطنا الهستيريا بالجنون فلن ينتج من ذلك وصفٌ ينطبق على ذلك الشخص الذي استطاع أن يطعن إنسانًا ثمان وتسعون طعنة!

لقد كان من الطبيعي أن يرقَّ قلبه عند الطعنة العشرين، أو تتعب يده عند الطعنة الثلاثين، أو يصيبه الملل عند الطعنة الخمسين..

أصبتُ بالشلل الفكري ولم أعد قادرًا على إقناع عقلي بالعدول عن فكرة عدم التفكير..

كنتُ أرتشف الرشفة الأخيرة حين تذكرت كلمات ماركوس:

إذا أردت الإمساك بالمجرم فعليك أن:

١. تعتقد بعدم وجود الجريمة الكاملة.

٢. تمسك بكل خيوط الجريمة.

٣. تضع نفسك مكان المجرم وتفكر كما يفكر.

لم أكن أستطيع الإمساك بذلك المجرم مطلقًا في ذلك التوقيت لأنني:

١. كنت أعتقد بوجود الجريمة الكاملة.

٢. لم أمسك بخيط واحد من خيوط الجريمة.

٣. كنت عاجزًا حتى تلك اللحظة عن إقناع عقلي بالعدول عن فكرة عدم التفكير.

أمام مبنى التحقيقات الجنائية اللَّندني وقفتُ متأخرًا ساعة كاملة، كنت على يقين بأن ماركوس سوف يشويني حيًا بسبب تأخُّري، كنت أستطيع رؤية ذلك في عينيه بوضوح، كان ينظر إليَّ نظرة الأسد المعتادة من خلال النافذة بعينيه الضيقتين الزرقاوين لو نظر إليَّ أسد حقيقي لكان أفضل، المضحك أن ماركوس لم يكن منظره يمتُّ إلى الأسد بصلة، فقد كان مخلوق نحيف قصير أصلع، كان منظره يوحي بأنه أفعى متحوِّلة.. إياك أن تكون قد بدأت في احتقاره فماركوس بدون مبالغة

كان أفعى متحولة لم يكن مسدسه الذي لا يفارقه حتى في المنام سلاحه الوحيد، كان يحمل أيضًا سلاحًا أبيض في منتصف وجهه الأبيض، ذلك الأنف المعقوف المدبَّب الذي يشبه الخنجر، ذلك بالإضافة إلى كلابه البوليسية الكثيرة التي كانت تملأ جمجمته، تلك الشكوك الكثيرة التي تجعلك تشك في نفسك..

وقفتُ أمام باب المكتب مُصابًا بنوبة هلع على وشك أن تتحول من شدتها إلى اضطراب الهلع، مددت يدي بصدرٍ منقبض نحو مقبض الباب وقبل أن تصل يدي إليه فُتح الباب فجأةً، لقد كان الباب موارَبًا ولم ألاحظ ذلك..

على الفور قرأت الرسالة التي تركها لي عند الباب، كانت تلك هي طريقته دائمًا عندما يكون الأمر خطيرًا، يبعث إليَّ برسالة مفادها أن الأمر خطير بما يكفي، من اللحظة الأولى فهمت فحوى الرسالة، ماركوس أراد أن يقول لي لا وقت لدينا يا جون، لا وقت حتى لفتح الباب، لقد تركت لك الباب مفتوحًا؛ لأنه لا وقت لأن تمد يدك لتفتح الباب، فقط ادخل بسرعة ادخل في القضية، فالمجرم يبتعد خطوة كل ثانية..

كان لا يزال واقفًا ينظر من النافذة شاردًا كأنما يتابع المجرم وهو يعدو مبتعدًا بكل ما أوتي من قوه، اقتربت منه قائلًا:

- شكرًا لأنك وفَّرت لي ثانية كنت سأحتاجها لفتح الباب.

فهم أنني فهمت فحوى الرسالة فابتسم ابتسامة شاحبة تستعد للفرار من الغضب الذي يحاصرها في وجهه، وقال:

- عيبك ليس هو الغباء

لم أفهم، فبدا عليَّ الغباء حين أردف قائلًا:

- الاستهتار هو عيبك الوحيد، متى ستتخلَّص من سرطان الاستهتار يا جون؟

مع آخر كلمة نطقها ضرب على المكتب بيده ضربة شديدة، فأشفقت على المكتب ولم أشفق على يده، المكتب من الخشب وذلك الرجل رجل حديدي.

- ماركوس أنا لم أتأخر إلا ساعة واحدة و..

قاطعني قائلًا:

- ألا تعلم أن الدقيقة الواحدة في عملنا قد تنقذ حياة شخص؟

- نعم ولكنني..

قاطعني ثانيةً:

- ألا تعلم أيضًا أن المجرم الذي استطاع أن يطعن إنسانًا ثمان

وتسعون طعنة يستطيع أن يقتل أناسًا أبرياء بعدد هذه الطعنات إذا ظل طليقًا؟

– ماركوس، هذه...

قاطعني ثالثةً:

– وهذه ليست المرة الأولى التي تأتي فيها متأخرًا بل المرة المائة بعد المائة الألف.

استسلمتُ ونظرت إلى الأرض مبتسمًا، كان ذلك جيدًا على كل حال فالمجرمون كانوا يستسلمون أمام ماركوس بوجوه عابسة، أما أنا فاستسلمتُ مبتسمًا.

حتى في عدد ساعات النوم هزمني!

ماركوس كان ينام خمس ساعات فقط يوميًّا، وعندما حاولت تقليده لمده أسبوع واحد فقط ارتكبت ثلاث جرائم، كانت الجريمة الأولى بعد يومين فقط عندما أطلقت النار على زميلي بالخطأ وكدتُ أقتله لولا أن الطلقة انحرفت قليلًا، بعد أربعة أيام ارتكبت الجريمة الثانية حين دخلت إلى مكتب المدير بدلًا من مكتبي فجاء فوجدني جالسًا على كرسيِّه ابتسم له ابتسامة صفراء، بعد سبعة أيام متواصلة من النوم لمده خمس ساعات فقط يوميًّا ارتكبت الجريمة الثالثة والأبشع عندما ناديتُ زوجتي الغيورة باسم آخر ثلاث مرات في يوم واحد، كنت أناديها ب

"مارلين" بدلًا من "مارجريت"

الجريمة الأولى عوقبتُ عليها بخصم المكافأة السنوية.

الجريمة الثانية عوقبتُ عليها بطلقتين ناريتين من عينَيّ المدير.

الجريمة الثالثة عوقبتُ عليها بالسجن المؤبد في فرنٍ أوقدته مارجريت بنار الغَيْرَة.

تبًّا لك يا ماركوس، متى سأهزمك، متى سأكون..

قاطعني رابعةً:

هل ستظل واقفًا هكذا؟

قاطعني الرابعة وأنا أحدث نفسي فاغتظتُ بشدة لكنني لم أملك إلا أن أبتسم ابتسامة صفراء وأتجه ناحية مكتبي..

جلسنا صامتين مدة طويلة حتى كاد صوت صمتنا يسمعه من بالخارج، فقلت متنحنحًا:

- هل أطلب لك قهوة معي؟

بالكاد أومأ برأسه، فطلبتُ القهوة، ثم قلت:

- ماذا سنفعل، هل وضعت خُطّة؟

لاحظت التهكم في كلامه حين قال:

- أي خُطّة يا سيد جون؟

ظن أنني أقصد الخُطّة بالمفهوم الخاص، وهذا لا يكون إلا إذا حدَّدنا هوية المجرم عندئذ نضع الخُطّة للإيقاع به، أعدتُ صياغة السؤال قائلًا:

- هل وضعت خُطّة للبحث؟

قال دون أن ينظر لي:

- لقد كدتُ أظن أنني مخطئ حينما قلت أن عيبك ليس هو الغباء.

قلتُ محدِّقًا في وجهه:

- اطمئن فعيبي الوحيد أنني مريض بالسرطان كما قلت.

حدَّق في وجهي هو الآخر، وقال:

- وهل لديك اعتراض على تشخيصي؟ أنت مريض بالفعل بسرطان الاستهتار

هربت بوجهي منه، ولم أستطع النطق حين فاجأني بسؤال لم أكن أتوقعه فقال:

- ما رأيك في شخصية القاتل؟

فاجأته بإجابة لم يكن يتوقعها أيضًا فقلت:

- ربما كان ذلك القاتل هو المقتول

– هلاَّ تفضلت بالتوضيح؟

– ربما طعن المقتول ذلك القاتل ثمان وتسعين طعنة في نفسيته قبل أن يقرر القاتل أن يرد له عدد الطعنات نفسه في جسده، وإلا فما رأيك أنت يا ماركوس في ذلك العدد المخيف من الطعنات؟

– هل تريد أن تقول إن الدافع هو الانتقام؟

– الأمر واضح بمجرد النظر

–هذا إذا نظرت تحت قدميك، لكنك إذا نظرت إلى عدة أمتار أمامك فسوف ترى شيئًا آخر

صمتُّ حين لم أفهم فأردف قائلًا:

– ألا ترى أنه من الغريب أن يكون هناك انتقام يساوي ثمان وتسعون طعنة؟

كانت ملاحظة ذكية فأكبر انتقام شهدته إنجلترا كلها قبل تلك الجريمة كان يساوي فقط عشرون طعنة.

– أما زلت لا ترى ما أرى أيها المحقق جون؟

أخرجني من شرودي حين قالها، فقلت:

– لا تقل لي إن الدافع الذي دفع المجرم إلى قتل السيد وليام هو الاستيلاء على أمواله الطائلة

– هذا بالضبط ما أقصد.

– ماركوس، إنها ثمان وتسعون طعنة ألم تكن طعنة واحدة تكفي المجرم للحصول على تلك الأموال؟!

– أنت لم تفهمني بعد أيها المحقق الذكي جون

قالها محدقًا في وجهي، ثم أردف:

– إذا أمعنت النظر فسترى أن ذلك العدد الهائل من الطعنات لا يتناسب مع دافع الانتقام، فكما قلتُ ليس هناك انتقامًا يساوي ثمان وتسعون طعنة، وأيضًا عدد الطعنات الهائل هذا لا يتناسب مع دافع الحصول على الأموال فكما قلت أنت كانت طعنة واحدة تكفي المجرم للحصول على تلك الأموال، ولكن إذا جمعت بين الدافعين ستتضح لك الحقيقة فالمجرم قتل بدافع الحصول على الأموال وهذا هو الدافع الحقيقي، لكنه أراد أن يخفي الدافع الحقيقي بدافع وهمي وهو الانتقام فزاد من عدد الطعنات لهذا الحد.

كنت أنظر إليه بانبهار مبتسمًا فحدق في وجهي مرةً أخرى، وقال:

– أما زلت لا ترى؟

في الحقيقة لم أكن أرى في تلك اللحظة إلا شخصًا واحدًا كنت أراه دائمًا كلما نظرت إلى ماركوس..

شيرلوك هولمز

***

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً عندما وقفت أمام البوابة التي كانت مفتوحة على مصراعيها كأنها ترحب بي بذراعين مبسوطتين، عبرتُ الحديقة متجهًا إلى الطابق الثاني وأنا أقول في نفسي: "سوف تكون مفاجأة سارة لمارجريت" قلت ذلك طبعًا لأنني رجعت من العمل قبل الثامنة موعد رجوعي المعتاد بساعة كاملة..

المفاجأة كانت لي أنا عندما وجدتها في استقبالي عند الباب، رسالة مارجريت التي تتركها لي دومًا عند الباب عندما تريد الخروج من البيت تخبرني فيها بمكانها وموعد عودتها، تجاهلتُ الرسالة فتركتها ملقاة على الأرض ودخلتُ مغتاظًا وأنا أقول في نفسي: "عندما آتي متأخرًا أجدها في استقبالي بمدفع رشاش، وعندما آتي قبل الثامنة بساعة كاملة أجد رسالتها في استقبالي بالنيابة عنها"

"الغيظ كالقيظ" كانت مقولة من تأليفي، ردَّدتها بيني وبين نفسي مرارًا لكنني لم أراها بعيني إلا حينما رأيت وجهي في المرآة بعدما دخلتُ مغتاظًا، كنت كأنني خرجتُ لتوّي من أدغال أفريقيا مقذوفًا بحمم شهر أغسطس، كان لا بد أن أذهب إلى الحمَّام لإخماد الجمرة الملتهبة في وجهي ببعض الماء..

حينما عدتُ من الحمام تذكرتُ مقولة ماركوس:

"إذا لم تقتل صفاتك السلبية فسوف يقتلك مجرم ما عاجلًا أو آجلًا" مقولة من ذهب.

قال لي أيضًا:

"الصفة السلبية مثل الكلبش الذي يقيد يدك فإذا أردت أن تضع الكلبش في يد المجرم فعليك أن تحرِّر يدك أولًا" مقولة من ألماس.

أعترف أن عدم قدرتي على التحكم في الغيظ من صفاتي السلبية، أعرف نفسي جيدًا، أعرف أنني لا أستطيع قتل صفاتي السلبية، أستطيع أن أجرحها لا أن أقتلها، أن أحجِّمها لا أن أسيطر عليها، على الأقل أنا أعرف نفسي، هناك أناس لا يعرفون أنفسهم، أناس إذا نظروا في المرآة لا يرون أنفسهم، يرون غيرهم في المرآة لأنهم يتقمصون شخصيات غيرهم، أما أنا فإذا نظرتُ في المرآة رأيت جون، رأيت وجهه المستدير الأبيض ذو العينين البُنيَّتين، ورأيت شعره البني أيضًا ورأيتُ كذلك حذاءه البني المعتاد مقاس ٤٣ فتنتابني الابتسامة المعتادة عندما ألاحظ تناسق الألوان المذهل!

-لا تحاولي أن تتقمصي شخصية غيرك فتلك الشخصية ستكون إما قميصًا ضيقًا جدًا، وإما قميصًا واسعًا جدًا.

قلت ذلك لمارجريت يومًا فردت بجملة واحدة مكررة:

- أنت فيلسوف يا جون.

لم أكن فيلسوفًا كما تقول، كنت أعرف أنها تبالغ بشدة.

"أنا أفكر إذًا أنا موجود" هذا عنوان الفيلسوف الشهير "رينيه ديكارت" لو كنتُ فيلسوفًا كما تقول مارجريت لكان هذا عنواني، لكل إنسان عنوان، إذا أخبرك به فلن تكون محتاجًا إلى أن تتصفح كتاب حياته لكي تعلم عنوان شخصيته

أنا محقق إذًا أنا موجود..... هذا عنوان ماركوس

أنا أغار إذًا أنا موجودة..... هذا عنوان مارجريت

أنا أتنفس إذًا أنا موجود..... هذا عنواني

أعلم أن عنواني مضحك ولكن على الأقل أنا موجود.

أما الذي ألغى شخصيته وتقمص شخصية غيره فعنوانه: أنا أتقمص شخصية غيري إذًا أنا غير موجود!

أفقت من شرودي فوجدتني بعيدًا عن البيت مسافة ساعة من المشي السريع، والتي تساوي ساعتين من المشي البطيء في أثناء العودة..

عندما عدتُ إلى البيت كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، تجاوزتُ البوابة المفتوحة مسرعًا وأنا أسترجع معلوماتي كطالب مُقدم على لجنة الامتحان، بماذا سأجيبها حينما تسألني لماذا تأخرت هذه الليلة أيضًا؟

أمام الباب توجَّعت الرسالة محدثة صريرًا مرتفعًا عندما وطئتها

قدمي دون قصد فدعكتها بشدة في الأرض مغتاظًا كاتمًا أنفاسها؛ لأنها كانت السبب في خروجي من البيت مغتاظًا هائمًا على وجهي حتى تأخرتُ إلى تلك الساعة، كانت الكارثة أن مارجريت لن تصدق أنني قد عدتُ من العمل ذلك اليوم قبل الثامنة..

فتحت الباب بهدوء شديد كاد يتفوق على الهدوء الذي بالداخل، لم أكن أشك في أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، لم أكن أشك في أن مارجريت تكمن لي خلف باب من تلك الأبواب المغلقة، توجهتُ إلى غرفة الطعام بشجاعة اضطرارية تحت شعار "مجبر زوجكِ لا بطل" فلم أجد بها أحدًا، توجهتُ إلى غرفة الجلوس فلم أجدها جالسة، في تلك اللحظة العصيبة لم يعد هناك احتمال أنها غير موجودة في غرفة النوم إلا بنسبة صفر بالمائة..

أمام غرفة الاعتراف وقفتُ أبلع ريقي كترياق مضاد للكلمات المسمومة التي كنت على وشك سماعها، وبعدما نفد ريقي بلعًا ابتلعتني الغرفة فتفاجأت بها أمامي.

كانت تحدِّق في وجهي بعينين محتقنتين كفوهتي جبل بركاني دون أن تتكلم، لم أكن أشك في أنها تنوي شنقي بحبلٍ طوله تسعة أمتار بعدد الساعات التسع التي تأخرتها في مجموع الليلتَين، لم أكن أشك في أنها تنوي طردي من جنتها الخضراء في الأرض إلى صحراء جرداء على

كوكب عطارد الملتهب، لم أكن أشك في أنها تنوي معاقبتي بالسجن مدى الحياة في فرن أوقدته بنار هي أشد ألف ألف مرة من نار غيرتها.. نار البعد عنها.

عندما أطالت نظرتها أكثر من اللازم دون أن تتكلم فهمتُ على الفور أنها تريد اعترافي، فقلت في نفسي: "لا لن أعترف، أنا المحقق الذي يجبر المجرمين على الاعتراف" كانت تلك مجرد دعابة حمقاء بالطبع.

فقد نسيت أنني في غرفة الاعتراف وأنها هي المحقق وأنا المجرم، كنت دائمًا مجرمًا بلا جريمة، كنت أرى أنني أستحق أن أكون بطل رواية أجاثا كريستي "مجرم بلا جريمة" تمنيت أن يأتي روائي عبقري ويعكس اسم تلك الرواية فيجعلها "جريمة بلا مجرم" سأكون أول من يشتريها بأي ثمن، سأكون أول من يشتريها حتى أعرف كيف تكون الجريمة بلا مجرم، كنتُ أتمنى أن أكون ولو لمرة واحدة بطلًا لرواية تسمى "جريمة بلا مجرم" بدلًا من "مجرم بلا جريمة".

– ما عذرك هذه المرة؟

بعد طول صمت صرخت بها في وجهي ممزقة نفسيتي المهترئة التي لا تحتاج إلى تمزيق، حاولت أن أتكلم بفم نضب ريقه من كثرة البلع فلم أجد مِدادًا أكتب به الكلمات، وعندماً طال صمتي أكثر من اللازم قرَّرت أن التهمة قد ثبتت عليَّ وقامت بتثبيتي في خشبة الإعدام تمهيدًا

لقطع رقبتي بالمقصلة بعد النطق بالحكم..

أصدرت حكمًا بإعدامي، فقالت:

- طلقني يا جون.

استأنفتُ الحكم بنظرة استعطاف لكنها كررت النطق بالحكم:

- طلقني يا جون.

أعطتني المقصلة لأنفذ حكم الإعدام في نفسي بنفسي حتى تستمتع بتعذيبي نفسيًّا، قبضتُ على المقصلة بغيظٍ شديد وقمتُ بتثبيتها على رقبتي المثبتة في الخشبة، ثم بلعتُ قطرة ريقٍ أخيرة كانت متوارية في فمي تتشبث بالحياة، بلعتها لأنه لم تعد هناك حياة، لم تعد هناك مارجريت..

مرَّرتُ المقصلة على رقبتي مرة ومرة ومرة، أنتِ طالق، طالق، طالق، كنت أصرخ صرخات مظلوم وكان صوتي مرتفعًا جدًا لدرجة أنه أيقظني أنا ومارجريت..

جالسًا على السرير أدركتُ أنني كنت أحلم وتأكدت من ذلك بما لا يدع مجالًا للشك حين نظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها تشير إلى العاشرة صباحًا، تذكرتُ ساعتها ما حدث ليلة أمس إذ كنت قد دخلت الغرفة فتفاجأت بمارجريت أمامي لكنها كانت نائمة فتسحَّبتُ على الفور واستلقيتُ بجوارها على السرير ثم رأيت ذلك الكابوس المزعج..

أفقتُ من ذكريات ليلة أمس فوجدتها أمامي جالسةً على السرير تحدِّق في وجهي بعينين مدهوشتين، تقول:

– هل طلّقتني في المنام يا جون؟

لقد سَمِعَت بالطبع طلقاتي الثلاثة المدوية بوضوح عندما صرختُ وأنا نائم "أنتِ طالق، طالق، طالق".

صدق من قال هم يبكي وهمٌّ يضحك، كدتُ أنفجر ضاحكًا لكنني بالكاد وفي آخر لحظة سيطرت على ذلك الانفجار النووي الذي كان سيدمِّرني تمامًا، فعندما يتعلق الأمر بالطلاق المَقَدَّس فمجرد المزاح فضلًا عن الضحك يُعد انتهاكًا صارخًا لحقوق المرأة المسماة مارجريت.

كانت لا تزال تبحلق في وجهي تنتظر الإجابة، أيُّ إجابة كانت تنتظر من طالب فاشل في مدرسة الزوجية رسب سبع سنوات زواج على التوالي؟!

كنت مضطرًا لاستخدام ذكائي كمحقق، ذكائي المشهود له من ماركوس شخصيًّا، فقلت:

– عزيزتي مارجريت، ماذا قلتُ بالضبط وأنا نائم؟

صمتت قليلًا، ثم قالت:

– لقد قلت أنتِ طالق، طالق، طالق، نظرت إليها قائلًا:

– أفهم من كلامكِ أنني لم أنطق اسمكِ، أليس كذلك؟

نظرت إليَّ بسذاجة الأطفال، وقالت:

– في الحقيقة أنا لم أسمعك تنطق اسمي.

نظرت إليها ببراءة الأطفال قائلًا:

– إذًا أنا بريء

ولكي أجعلها تبتلع الكذبة باستمتاع وضعت البُهارات عليها، فقلت:

– عزيزتي، الطلاق معناه أننا سنفترق وأنا لا أستطيع فراقكِ حتى في المنام.

فاجأتني وتقيأت أكلتي اللذيذة في وجهي قائلة:

– إذا لم تكن طلقتني أنا فمن هذه التي تزوجتها في المنام ثم طلقتها؟

الذي قال همٌّ يبكي وهمٌّ يضحك لم يكن يعلم أن هناك نوع ثالث من الهم يجعل المرء يصيح ويولول كالنساء فاقدًا ذكورته، لم أكن لأتنازل عن ذكورتي أمام امرأة مطلقًا وعوضًا عن ذلك تمكيجتُ بمكياجٍ أصفر جذاب، فابتسمتُ ابتسامة صفراء رائعة حين واصلت هي قائلةً:

– من هذه المرأة التي كنت تفكر فيها طيلة سبع سنوات حتى رأيتها في المنام؟

الغَيْرَة عبارة عن سلَّة مهملات تحوي الرسائل الآتية:

– سوف تتحول إلى مريض نفسي موسوعي.

– لن تهنأ بطعامٍ أو شراب كحال كل مريض لا يهنأ بهما.

– سوف تتحول من إنسان إلى إنسان آلي، فجميع مواعيدك سوف تُضَبط بالدقيقة وربما بالثانية.

– سيكون الشك هو الشاكوش الذي ستدق به زوجتك الغيورة بلا انقطاع بجوار رأسك وأنت نائم فتقضّ مضجعك وحين تستيقظ ستدق به على رأسك.

– سيكون الطلاق هو الشبح الذي سيطاردك دومًا حتى يطردك من المنزل نهارًا وحين تعود ليلًا لتنام سوف يطاردك في أحلامك، فيحولها إلى كوابيس.

بعدما قالت ما قالت حاولتُ بغباء استخدام ذكائي مرة أخرى للرد عليها، لكني تذكرت أن ذكائي كان السبب في تلك الكارثة التي آل إليها أمري، بل والتي كان من المرجح أن ينتهي عندها أمري فقررت التزام الصمت تمامًا، وحينما طال صمتي أكثر من اللازم تذكرت المشهد الأخير في الكابوس عندما طال صمتي فثبتت عليَّ التهمة وقامت هي بتثبيتي في الخشبة، ثم أصدرت حكمًا بإعدامي، فقالت: "طلقني يا جون". حدثت نفسي قائلًا: ها أنا قد أديت دوري في المشهد على أكمل

وجه، الآن دورها هي، هي أفضل من يؤدي هذا الدور، الآن تصدر حكم الإعدام، الآن تقول...

- انطلق يا جون.

قاطعتني وأنا أحدث نفسي فقلتُ وأنا في حالة من الشك الرهيب، هل قالت طلقني يا جون أم قالت انطلق يا جون؟

كانت تقف عند النافذة عندما نادت مرة أخرى تؤكِّد أنها لا تطلب الطلاق:

- انطلق يا جون.

يا لها من مفارقة الانطلاق بدلًا من الطلاق!

انطلقت مسرعًا فوقفت بجوارها، كانت تشير من النافذة ناحية البوابة وهي مذعورة

- جون، هل ستظل واقفًا هكذا؟

قالتها محدِّقةً في وجهي بعينين مذعورتين، فقلت بهدوء:

- مارجريت اهدئي.

التقطت مسدسي وخرجت مسرعًا فوصلتُ إلى البوابة في زمن قياسي، تلفَّتُ يمينًا ويسارًا فوجدته أمامي على بُعد ثلاثين مترًا، فانطلقتُ وراءه...

كان دُبًّا يرتدي معطفًا ويمشي على ثلاثة أرجل، رجلٌ سمين يتوكأ على عكَّاز ويرتدي معطفًا سيقيه برد "بلوتو" لو قرر الذَّهاب إلى هناك.

– قف وإلا أرسلتك إلى الجحيم

تفاجأ الرجل فوقع العكَّاز من يده، فأصبح آيلا للسقوط، وقال مذعورًا:

– سيدي أنا لم أصنع شيئًا.

– لقد رأيناك خارجًا من البوابة.

– نعم سيدي، أنا عامل النظافة لم أجد القمامة بجوار البوابة وعندما وجدت البوابة مفتوحة دخلتُ حتى...

– وهل وجدت القمامة بالداخل؟

قاطعته فأخرج ورقة كانت في جيب معطفه وقال:

– لم أجد غير هذه.

عرفتها علي الفور حين رأيتها، الرسالة التي كانت عند باب الشقة، أخذتها من يده وأنا أنظر إليه متشككًا، وقلت:

– يبدو أنك رجلٌ مخلصٌ في عملك لدرجة أنك صعدت إلى الطابق الثاني بحثًا عن القمامة.

كان الرجل على وشك البكاء حين تذكرتُ أنني بالفعل قد نسيت البوابة مفتوحة الليلة الفائتة فبدت لي فكرة أنه بريء مقنعة بنسبة خمسون بالمائة، وقد أصبحت تلك النسبة مائة بالمائة عندما تردد بداخلي سؤال منطقي إجابته المنطقية معروفة إذا كان هذا الرجل سارقًا فهل كان سيهتم بسرقة ورقة ملقاة على الأرض؟

كان الرجل يرتجف من شدة الخوف ناظرًا إلى المسدس الذي في يدي فخفضتُ المسدس الذي كاد يسقط من يدي المرتجفة، كنت أرتجف من شدة البرد فقد خرجتُ مسرعًا قبل أن أرتدي شيئًا يكفي لإشباع البرد الجائع الذي كان ينهشني بلا رحمة..

عدتُ إلى البوابة مسرعًا فوجدتُ مارجريت قد سبقتني إلي هناك، كان القلق يقلقل مقلتيها، كانت تنظر إليَّ بعينين مرتجفتين فأسرعتُ بطمأنتها فأشرت إلى الرسالة وقلت مداعبًا:

- اطمئنِّي لم يسرق غير هذه.

ظنت من كلامي أن الرجل كان سارقًا فوضعت كفيها على خديها فاتحةً فمها وعينيها بذهول، فأسرعت قائلًا:

- لا ليس كما تظنين، لقد كان عامل النظافة

أدركت أنني كنت أداعبها فهدأت ملامح وجهها، ونظرت إلى الرسالة قائلةً:

- ولكن ما هذه؟

رفعتُ الرسالة أمامها لكي تراها بوضوح، وقلت:

- ألا تعرفينها حقًّا؟

أومأت برأسها نافيةً وكانت تلك مفاجأة صادمة لي، فأنا لم أشك لحظة واحدة في أن تلك الورقة هي الرسالة التي تتركها لي دومًا عند الباب، خفضتُ الرسالة محدِّقًا فيها باهتمام بالغ سائلًا نفسي رسالة مَن هذه إذا لم تكن رسالة مارجريت؟!

كانت درجة حرارتي ترتفع بتسارع مذهل وأنا أنظر إلى الورقة المطويَّة فاقدًا الإحساس تمامًا ببرودة الجو، وقد وصلت درجة حرارتي إلى درجة الغليان عندما بسطتُ الورقة فوجدتُ كلمتين فقط:

"رأيتُ المجرم"

***

جمرة الانتظار التي كنت أقف عليها تصاعدت حرارتها من قدمي إلى دماغي فكادت تفسد التوصيلات بين نصفي دماغي، لقد كان عليَّ الانتظار يومًا كاملًا حتى أستطيع مقابلة ماركوس في اليوم التالي فأخبره بموضوع الرسالة الخطيرة، فقد كنا في يوم الأحد عطلة نهاية الأسبوع في لندن، بالطبع لم أكن أستطيع محادثة ماركوس عبر الهاتف في مثل ذلك الأمر الخطير، أما التليفون المحمول فالسيد ماركوس العجيب لم يكن يحمل محمولًا فهو لم يكن يعترف إلا بمحمولٍ واحد فقط هو المسدس الذي كان يحمله حتى في الحمَّام..

على غير العادة قضينا العطلة بالمنزل، كنا قد تعودنا قضاءها في التنزه خارج المنزل إلا أنني بعد ما قرأت تلك الرسالة لم أكن في حالة تسمح لي بالتنزُّه مطلقًا وقد لاحظت مارجريت ذلك فلم تطلب مني الخروج ذلك اليوم، بالإضافة إلى أنها تغاضت عن موضوع المرأة التي طلَّقتها في المنام، فبخلاف سيئة الغَيْرَة كان لمارجريت حسنات مبهرة سألتها يومًا:

لماذا قبلتِ الزواج بي؟ فقالت: رأيتكَ طفلًا.

لم تكن تقصد إهانتي بالطبع وإنما كانت تقصد أنني ما زلتُ بطبيعة الطفولة لم أتأثر بعوامل التعرية الزمنية بعدما ارتفع بناء جسدي كما يتأثر أي بناء مرتفع بعوامل التعرية من رطوبة ورياح... إلخ

كانت مُحِقَّة فيما قالت فقد كنت أرى نفسي طفلًا بعمر سبع سنوات، لم أكن أرى سنوات عمري الاثنتين والثلاثين كلها، لم أكن أرى منها إلا سبع سنوات فقط مدّة زواجي بمارجريت، كنت في غاية السعادة لأنها رأتني على حقيقتي، كنت في غاية السعادة لأنها رأتني طفلًا حتى تعتني بذلك الطفل الذي سُرقت منه طفولته، الطفل الذي لم يُعتنى به كطفلٍ صغير وإنما ضُرب وأُهين كخنزيرٍ صغير..

الطفولة هي أثمن شيء تملكه في صغرك، إذا سُرقت منك فسوف يرتفع بناء جسدك بلا أساس، سوف تهدمك نفخة، لن تحتاج إلى عاصفة كي تهدمك، لن تحتاج حتى إلى زوبعة، مع أول نفخة سوف تدرك أن الانهيار قادم، سوف تدرك أنها مسألة عدد نفخات لا أكثر، ستتوالى عليك النفخات من أفواه المجرمين الذين لن يرحموك، المجرمون الذين لن يكفُّوا عن النفخ بكلمات التنمُّر والاستهزاء، المجرمون الذين لن يكلّفوا أنفسهم بالسير في سرداب ماضيك المظلم، لن يكلّفوا أنفسهم محاولة إخراجك من ذلك السرداب الموحِش المظلم الذي هجرته حتى خفافيش الظلام، سوف تتوالى عليك نفخاتهم حتى يهدموك، سوف تصبح تحت الأنقاض، سوف تصبح نفسيَّتك تحت أنقاض طوابق عديدة، طوابق بعدد سنوات عمرك، لقد جاءت مارجريت منذ سبع سنين وانتشلتني من تحت أنقاض خمسة وعشرين طابقًا، لقد كنت في الخامسة والعشرين من عمري عندما تزوجنا، منذ ذلك الحين بدأت

مارجريت في إخراج نفسيَّتي من تحت الأنقاض، منذ ذلك الحين بدأت في الاعتناء بالطفل المولود جون، لقد تَعِبتْ كثيرًا من أجل تربيتي، تَعِبتْ كثيرًا حتى أصبحتُ جون الطفل صاحب السبع سنوات، جون الطفل الذي يخيفه كثيرًا شبح يسمَّى الطلاق..

- أما زلت واقفًا في مكانك منذ نصف ساعة؟

أخرجتني من شرودي فشردتُ مرة أخرى محدثًا نفسي: هل وقفت في مكاني نصف ساعة؟!

- جون، ماذا بك؟

نادتني مرةً أخرى وهي تقترب مني تتفحَّصني بعينيها، فالتفتُّ إليها قائلًا:

- ليس بي شيء، لقد شردتُ قليلًا

تراجعت خطوة وهي لا تزال تحدِّق في وجهي ببعض القلق.

- مارجريت، إنه مجرَّد شرود

قلتها مجهزًا على ما تبقى من قلقها، فقالت بابتسامة خفيفة:

- هل أنت جاهز للعشاء؟

- مارجريت، السؤال هو: هل العشاء جاهز؟

خرجت كلماتي محترقة بنار الجوع كعشاءٍ محروق

انكمشت ملامحها فجأة ولم ترد، فقلت بقلبٍ محترق:

– مارجريت ماذا هناك، هل احترق العشاء؟

لم تخبرني بأن العشاء قد احترق لكنها أخبرتني بما هو أسوأ حين قالت:

– جون، هل نسيت أننا سنتعشى بالخارج؟

تذكرتُ أنني وعدتها بالعشاء خارج المنزل، انتابني الشرود مرةً أخرى رغمًا عني متفكرًا في فَحْوى الرسالة، ثم لاحظت أنني لم أرد عليها فأسرعتُ قائلًا:

– سوف أذهب حالًا لأتجهز للخروج

بعدما مشيتُ خطوات اعترضت طريقي وحدَّقت في وجهي قائلةً:

– جون، أنت لست على ما يرام

اعتبرتُ تلك هدية ثمينة من الضروري قبولها واستغلالها أحسن استغلال كي أستطيع الإفلات من الخروج تلك الليلة، فأنا بالفعل لم أكن على ما يرام فلم أكن مستعدًا نفسيًا ولا ذهنيًا للخروج فقررت أن أشكرها على هديتها، ولكن بطريقتي فقلت:

– مارجريت، أود أن أشكركِ على الفطور الرائع هذا الصباح

بدون أن ترد نظرت إلى الأرض مبتسمة ففهمتُ على الفور أنها فهمت الرسالة..

الرسالة كانت: أريد عشاءً منزليًا رائعًا كهذا الفطور الرائع.

– وهل ستنتظر ثلاث ساعات أخرى حتى يصبح العشاء جاهزًا؟

الثلاث ساعات التي نطقت بها في وجهي كانت أسوأ بكثير من ثلاث صفعات على وجهي، فأنا لم أكن لأنتظر ثلاث ساعات أخرى.

وقفت مترقِّبة هل سأرد بنعم، فتتورَّط هي في تجهيز العشاء؟ خرجتُ بعيدًا عن نطاق توقعاتها وقلت:

– أرى أن الوجبة الجاهزة هي الحل وسوف أخرج حالًا لإحضارها.

تنفست الصُّعَداء بعدما صعدت حفرة تجهيز العشاء على أكتافي، وقالت:

– سيكون من الأفضل أن تذهب إلى مطعم سي فريش.

الأسماك كانت وجبة مارجريت المفضلة ومطعم سي فريش للأسماك كان مطعمها المفضل، المطعم كان يبعد عن المنزل سيرًا على الأقدام مسافة ثلاثين دقيقة في درجة حرارة ثلاثين درجة تحت الصفر، وكما هو واضح كان ذلك اقتراحًا لطيفًا جدًا من زوجتي العزيزة.

كانت مارجريت تعشق الأسماك بصورة مخيفة وكان من الضروري

أن أقوم بتنبيهها قبل أن تتطور علاقتها بالأسماك لما هو أسوأ، فقلت لها:

– هل تعرفين المقولة التي تقول: "تغدَّ بالسمكة قبل أن تتعشَّى هي بك؟"

كانت كلمة الغباء هي الكلمة الوحيدة التي خرجت من فمها حين فتحت فمها بدون أن تتكلم فأسرعتُ قبل أن تغلق فمها، وقلت:

– هل تعرفين المقولة التي تقول: "لا تفتح فمك بدون أن تتكلم حتى لا تفوح من فمك رائحة الغباء"؟

أسرعت بغلق فمها وهي تبتسم، فقلت ثالثًا:

– هل تعرفين المقولة التي تقول...

– جون، لا أريد أن أعرف.

قاطعتني ضاحكةً

– مارجريت، لا بد أن تعرفي أن تناول الأسماك النيِّئة يؤدي إلى الوفاة

قلتها بصوت مرتفع جدًا فانقطعت عن الضحك واحتلَّ الرعب ملامحها، ثم قالت بصوتٍ منخفض كأنها تكلم نفسها:

– كيف يأكلون الأسماك نيئة؟

كنت عند الباب حين قلت بدون أن ألتفت إليها:

- كان لا بد أن أنبِّهكِ

بالخارج توقَّيتُ بمعطفي حوالي ٧٠٪ فقط من الطعنات الهائلة التي انهالت عليَّ من البرد بسكاكينه التي لا ترحم، كنت أنزف بشدة، كنت أنزف ماءً، الأمطار كانت تهطل فوقي بكثرة، تذكرت ساعتها هطول الأمطار فوقي بكثرة في ذلك اليوم البعيد الذي هربت فيه من البيت، البيت الذي سكنت فيه بجسدي عشر سنين ولم تسكن فيه نفسي لحظة واحدة، كان مشهدًا مروعًا لخنزير صغير تهطل الأمطار فوقه بغزارة وهو يعبر الغابة بين الكلاب البرية والذئاب المتربصة،

أفقتُ من شرودي مفزوعًا من صوت الرعد وأنا أعبر شارع فوكسهول بريدج هاربًا من الأمطار والثلوج والعواصف التي تلاحقني متواريًا من كشافات البرق، كنت ملاحَقًا بشدة..

بالداخل كان الناس كلهم نيام، كانوا في أحلام اليقظة يحلمون باللحظة التي سينقطع فيها المطر حتى يغادروا مطعم سي فريش للأسماك حتى ولو بدون أسماك، كان يكفي أنهم سيتحولون هم أنفسهم إلى أسماك تسبح في الشوارع التي كانت قد قاربت على الامتلاء بماء المطر الغزير..

كنا متخوفين بشدة من انقطاع الكهرباء بسبب تلك الأمطار الغزيرة، اجتماع الظلام والمطر كارثة لم يكن أحد منا يريدها أن تحدث بالطبع،

ولكن القاعدة تقول: حينما لا تريد شيئًا ما فإنه يأتيك بسرعة البرق هذا إن لم يأتك بسرعة الضوء، وحينما تريد شيئًا ما فإنه يأتيك بسرعة السلحفاة هذا إن لم يأتك بسرعة الحصان.

هل تعلم أن الحصان بالفعل أبطأ من السلحفاة؟!

لم أقصد حصان البر وإنما قصدت "حصان البحر" والذي سمي بذلك الاسم نظرًا لشكله الذي يشبه الحصان، إنه جنس من الأسماك لا يسبقه في مضمار البطء حيوان آخر، فهو مصنف على أنه الحيوان الأبطأ على الإطلاق، وهذا على عكس الاعتقاد السائد بأن السلحفاة هي الحيوان الأبطأ..

هل تُكسر القاعدة ولا تنقطع الكهرباء أم تسري القاعدة وتنقطع الكهرباء؟

كان السؤال يدور في ذهني حين انقطع المطر، كان شيئًا جيدًا بالطبع أن ينقطع المطر بدلًا من أن تنقطع الكهرباء..

توقف المطر في اللحظة التي توقف فيها رجل ضخم عند قدمي يريد الاستيلاء على أموالي قائلًا:

- عشرون باوند يا سيد جون.

كنت جالسًا على الكرسي في صورة تُنْفُذ من شدة البرد حين تفوَّه

بها، فأخرجت يدي مغتاظًا وكوَّرتها ثم ناولته لكمة غاصت في يده التي كانت ثلاثة أضعاف يدي على أقل تقدير، وضع الوجبة بعدما أخذ النقود من يدي وانصرف..

كان ذلك عامل المطعم الملقَّب بالرجل الفيل على غرار الرجل العنكبوت والرجل الوطواط، كنت على شبه يقين من أن حياتي ستنتهي يومًا ما تحت أقدام ذلك الفيل المتجوِّل بحثًا عن الباوندات، لقد اختارت مارجريت ذلك المطعم بالتحديد من بين كل مطاعم لندن ليكون مطعمها المفضل، كان ذلك شيئًا لطيفًا بالطبع..

بعدما توقَّف المطر بدأ الجميع يستعدون للفرار قبل أن تبصق عليهم السُّحُب السوداء مرةً أخرى، تلك السحب التي لا تنقطع عن سماء لندن طوال فصل الشتاء، كنت أستعد أنا أيضًا للفرار مبتسمًا ابتسامه صفراء للسحب السوداء حين لمحتُ رجلًا يرمقني من بعيد، كان يقف عند الباب وكنت أنا بالداخل في أبعد مكان عن الباب، في اللحظة الأولى التي رأيته فيها شككتُ بأنه هو صاحب الرسالة..

في اللحظة الثانية أيقنتُ بأنه صاحب الرسالة حين وضعت يدي في جيب معطفي فلم أجدها بينما لمحتها تطلُّ من جيب معطفه هو..

في اللحظة الثالثة قمتُ مستعدًا للانطلاق نحوه.. في اللحظة الرابعة وقبل أن أخطو خطوة واحدة انقطعت الكهرباء...

لقد سَرَت القاعدة وانقطعت الكهرباء كان ذلك هو الطبيعي لكنَّ الشيء الذي لم يكن طبيعيًا قط أن تنقطع في تلك اللحظة بالتحديد، انطلقتُ نحو الرجل بسرعة الضوء لكن ليس بسرعة الضوء المعروفة، وإنما بسرعة الضوء الخافت المنبعث من الكشَّافات القليلة الموجودة، بمعنى أن سرعتي كانت تساوي سرعة سلحفاة معدَّلة وراثيًّا..

على ضوء كشَّاف من الكشافات لمحتُ كعب قدمه خارجًا من الباب فانطلقتُ وراءه متعثرًا في الظلام، وكان لديَّ أمل أن تُكسر القاعدة تلك المرة وتعود الكهرباء في اللحظة التي أضع فيها قدمي خارج المطعم إلا أن ذلك بالطبع لم يحدث، وللمرة الثانية تسري القاعدة ولا يسري التيار الكهربائي..

بسرعة أبطأ سمكة في الكون والمسماة "حصان البحر" كنت أسبح في شارع فوكسهول بريدج الذي امتلأ بالمياه، كنت لا أرى شيئًا في الظلام الدامس الذي كان بمثابة مدرَّعة من الفولاذ تسلح بها الرجل في مواجهة مسدس حقير في جيبي، كنت على يقين من أنني لن أحتاج إلى استخدام المسدس فالرجل لم يكن في ظنيِّ سوى شخص عادي رأى المجرم في أثناء ارتكابه الجريمة فكتب الرسالة يخبرني فيها بذلك، ثم ندم على ذلك خوفًا من انتقام المجرم فقرَّر سرقة الرسالة مني حتى يمحو أي صلة له بالقضية خوفًا من أن نتعرَّف على هويَّته من خلال خطِّه..

مرَّت حوالي ربع ساعة ولم تعُد الكهرباء فلم يعُد لديَّ أي أمل تقريبًا في الإمساك بالرجل لولا أنني رأيته يتقافز أمامي فجأة، تقافز الأمل أمامي عندما تذكرت شيئًا غريبًا جدًا كنت قد لاحظته من أول لحظة رأيت فيها الرجل بالمطعم، الرجل كان يرتدي معطفًا يشبه معطفي إلى حدِّ التطابق تقريبًا وكان ذلك يعني أنني سوف أتعرف عليه فورًا إذا سقط عليه الضوء من أي كشَّاف من تلك الكشَّافات التي كانت تضيء وتنطفئ بغير انتظام هنا وهناك..

تقافز الأمل بعيدًا هاربًا منى جنبًا إلى جنب مع الرجل الهارب عندما خطرت لي فكرة أن يكون الرجل قد اتخذ سبيله منذ ربع ساعة يمينًا أو يسارًا تاركًا إيَّاي أطارد اللاشيء، بل لقد خطرت لي فكرة أسوأ وهي أن الرجل خلفي يطاردني هو حتى يطعنني في ظهري؛ لكي يتخلَّص من مطاردتي له إلى الأبد وبالطبع في ذلك الظلام ستكون جريمة أمام ألف شاهد كلهم عميان، لم أكن أعلم هل ما زلت أسبح في شارع فوكسهول بريدج أم دخلتُ في تفريعةٍ جانبية، أوقفني الشاب الفارع الذي كان أمامي وسط الزَّحام في تلك اللحظة، كانت تلك هي ثالث موجة زحام توقفني في ذلك النهر، لقد تحوَّلنا جميعًا بالفعل إلى أسماك تسبح في الشوارع وعلى عكس جميع الأسماك الموجودة في الكون والتي تكره الشباك، كنا ننتظر شبكة الصرف الصحي حتى تخلصنا من تلك المياه..

كدتُ أسقط من الدهشة عندما سقط عليه الضوء أخيرًا، كان

ينظر خلفه حين سقط الضوء على وجهه فتلاقت عيوننا للحظة كانت كافية لأتأكد أنه هو، مددتُ يدي مسرعًا في الظلام فأمسكتُ به بعدما تخلصتُ من الدهشة التي كلبشتني لمدة ثلاث ثواني، كان يصرخ قائلًا: من أنت؟ ماذا تريد؟

بعد خمس دقائق من الصراخ المتواصل عادت الكهرباء فجأة، فصرختُ أنا قائلًا: هذا مستحيل! كاد يصيبني الجنون عندما اتَّضح لي أنني أمسكتُ برجل آخر، ومن حسن الحظ أنه لم يكن أي رجل، كان رجلًا لا يجيد شيئًا مثل السباب فأمطرني بوابل من الشتائم التي كانت بطعم الفلفل الحار وقد كان لديه كل الحق في ذلك فقد أرعبته لمدة خمس دقائق كاملة في الظلام..

الخلاصة أن الرجل الذي كنت أطارده استطاع الفرار مني فوقفت أنظر إليه قادمًا من بعيد بوجهه القبيح وهو يبتسم ابتسامة صفراء عريضة أفسحت المجال لأسنان صفراء أيضًا، كان ذلك هو الفشل ذو الوجه القبيح الذي لم يكن هناك على وجه الأرض أبغض إليَّ من وجهه، لقد فشلتُ في مطاردة حملًا وديعًا فماذا لو كان ذئبًا بريًّا؟ كان ذلك هو السؤال الذي لم أكن أسمع غيره بداخلي حين أفقت من شرودي فوجدتني أقف وحيدًا في منتصف شارع فوكسهول بعدما انفضَّ الناس جميعًا من حولي، لم يكن معي سوى الفشل ذو الأسنان الصفراء..

اتخذت طريقي راجعًا مرة أخرى بعدما قطعتُ كل تلك المسافة في الاتجاه المعاكس كانت اللحظات التي فرَّ فيها الرجل منِّي لا تفارقني، تلك اللحظات التي كلبشتني فيها الدهشة فلم أستطع مد يدي للإمساك به إلا بعد ثلاث لحظات وقفتُ فيها متبلِّدًا كالخرتيت

- ماركوس، إنها مجرد دهشة!

كنت مندهشًا فاتحًا فمي كالأبله وأنا أنطق بتلك الكلمات عندما كنا نتحدث أنا وماركوس عن الدهشة، حينها ردَّ عليَّ قائلًا:

– الدهشة تصيب الناس العاديين في وجوههم بالماء ولكن ستصيبك أنت أيها المحقق جون بالنار، سوف يطلق عليك المجرم النار في اللحظة التي تقف فيها مدهوشًا أمامه.

لحسن الحظ لم يكن الرجل مجرمًا فبدل أن يطلق عليَّ النار أطلق ساقيه للريح وفرَّ هاربًا، كان ذلك جيدًا على كل حال.

حدثت نفسي قائلًا: من المستحيل أن أخبر ماركوس بما حدث، هل أقول له لقد فشلتُ في الإمساك بالرجل الذي كان سيخبرنا بأوصاف المجرم؟ هل أقول له لقد فشلت في الإمساك بالورقة الرابحة في قضيتنا؟ هل أقول له أن الورق الرابحة قد فرت مني فأطلقت ساقيها للريح وطارت في الهواء بعيدًا؟

كان من غير الممكن أيضًا أن أخبر مارجريت بشيء مما حدث،

كان من غير الممكن أن أحكي لها عن فشلي، كان من غير المشكوك فيه أنني سوف أسقط من عينها في عين ماء جافَّة لا أجد فيها ماءً أغسل به عاري..

ذلك الموقف الذي كلبشتني فيه الدهشة ذكرني بمقولة ماركوس الرائعة: "الصفة السلبية مثل الكلبش الذي يقيد يدك فإذا أردت أن تضع الكلبش في يد المجرم فعليك أن تحرر يدك أولًا" أدخلت الدهشة تلقائيًا ضمن قائمة الصفات السلبية الخاصة بي.

- الاستهتار.
- الغيظ.
- الدهشة.

كنت أستطيع رؤية مطعم سي فريش بوضوح عندما لوَّح الفيل الواقف أمامه بيده، عامل المطعم الضخم الذي لولا ضخامته النادرة لدخل من أوسع أبواب موسوعة جينيس للأرقام القياسية، المشكلة الوحيدة التي كانت تواجهه هي أنه لا يستطيع الدخول من باب الموسوعة بذلك الحجم حين أصبحت أمامه مدَّ يده التي تشبه يد الإنسان نحوي قائلًا:

– هذه الورقة سقطت من جيب معطفك يا سيد جون.

هل هذا معقول؟ هل هذه هي الرسالة؟!

قلت ذلك في نفسي خاطفًا الورقة من يده فنظر إليَّ بعين مريضة بسرطان الشك وقال ببلاهة:

– لقد سقطت من جيب معطفك حينما كنت خارجًا من المطعم، بادلته البلاهة قائلًا:

– شكرًا لك.

انصرفتُ تاركًا الفيل غارقًا في بلاهته متمنيًا لذلك الفيل الهندي الغرق في المحيط الهندي حتى أتخلص من التهديد المستمر لحياتي كلما ذهبت إلى مطعم زوجتي المفضل، وبعدما مشيت بضع خطوات توقفت فجأة...

وقفت أحدق في الورقة التي في يدي مدهوشًا بعدما اكتشفت أنها ليست الرسالة... لقد كانت مجرد ورقة بيضاء!

كان عقلي يسير في متاهة مظلمة باحثًا عن حل ذلك اللغز، وقد أصبح اليأس على بعد ثلاثة أمتار فقط منه عندما أصبح البيت على بعد ثلاثة أمتار مني أيضًا، حينها توقفت فجأة مذهولًا للمرة الثانية بعدما اتضح الأمر لي تمامًا...

الرجل الذي كنت أطارده لم يكن صاحب الرسالة، لم يكن سوى

شخص عادي يحمل تلك الورقة البيضاء في جيب معطفه، والتي ظننت أنها الرسالة وقد سقطت منه في أثناء خروجه من المطعم حينما انقطعت الكهرباء فرآه عامل المطعم أثناء سقوطها منه على ضوء الكشاف الخافت، فظن أنه أنا لأن معطفه يشبه معطفي تمامًا! الجدير بالذكر أن الرجل لم يشعر لحظة واحدة بعد كل الذي حدث في الظلام أنني كنت أطارده ولم يقصد الإفلات مني حين مددت يدي للإمساك به، وإنما انحاز يمينًا أو شمالًا في اللحظة نفسها بدون قصد، فأمسكت برجل آخر تمامًا!

كان السؤال الذي يطرح نفسه بقوة بعد كل ذلك: أين ذهبت الرسالة؟

حين وصلت إلى باب الشقة وجدتها هناك تخبرني بالإجابة...

كانت الرسالة مُلقاة على الأرض تبسطها الريح وتطويها فبدت وكأنها تفتح فمها وتغلقه، وتتحدَّث إليَّ قائلةً:

لقد سقطتُ من جيب معطفك هنا، عند الباب.

***

وقفتُ أنظر إلى الرسالة المُلقاة على الأرض شاردًا أسبح بأفكاري حول كوكب نبتون البعيد عندما نادتني مارجريت من كوكب الأرض قائلةً:

- جون، ماذا بك؟

كانت تقف قريبةً منى تتأمّلني بقلق، لقد فتحت باب الشقة دون أن أراها أو أشعر بوجودها..

ألهذه الدرجة كنتُ شاردًا؟! قلت ذلك في نفسي حين مدّت يدها نحوي مكرِّرةً:

- جون، ماذا بك؟

وقفت لا أتكلم لم أكن أستطيع أن أتكلم، لم أكن أستطيع أن أحكي عن فشلي، لا أستطيع أن ألوك الفشل في فمي، إنه لا يندرج حتى في قائمة أكلاتي غير المفضلة، الفشل في فمي أنتن بكثير من جيفة خنزير، علاوة على ذلك لم أكن أفضِّل السقوط من الأماكن المرتفعة تكوَّنت لديَّ منذ الطفولة فوبيا المرتفعات النفسية، كنتُ سأسقط من المكان الأكثر ارتفاعًا في الكون إذا كنتُ حكيت لها عن فشلي، كنتُ سأسقط من عينيها...

حينما تقابل زوجتك وعن يمينك الفشل فإن زوجتك لن تراك، إنها لن ترى إلا فشلك ولن تسمع إلا صوت فشلك، سوف تستمع لفشلك

بإنصات شديد، سوف يقول لها بكل تبجُّح مبيِّنا أسنانه الصفراء: بما أن زوجك العزيز قد فشل هذه المرة فإنه قد يفشل أيضًا في:

- حمايتكِ.
- توفير متطلباتكِ.
- الاستمرار معكِ كأنثى وحيدة في حياته

الأمر الأخير هذا بالتحديد بطعم الجاتو اللذيذ كما هو ملاحظ..

قد يبدو لك أنني لم أفشل فالرجل الذي لم أستطع الإمساك به قد اتضح بعد ذلك أنه ليس صاحب الرسالة، لكنني كنت أعتبر ذلك فشلًا فأنا قد أخفقتُ في الإمساك بشخص ما سواء أكان صاحب الرسالة أم لا، تقديري الخاطئ من البداية أن الرجل هو صاحب الرسالة كان في حد ذاته فشلًا..

كان لديَّ أمل إذا طال صمتي أن تفهم أنني لا أريد أن أتكلم، لكنها وكالعادة قالت:

- جون، ماذا حدث؟

اتخذتُ قرارًا لا يجرؤ ذكر أن يتخذه أمام أنثى كتلك الأنثى فتركتها

أمام الباب واتجهتُ إلى الداخل..

وقفتُ في منتصف الصالة في حالة يرثى لها، كنتُ أترقَّب دخولها من الباب بين لحظة وأخرى، كان من المفترض أنها ستقوم بحملة تأديبية واسعة النطاق، حملة تأديبية لهذا الزوج عديم اللَّباقة الذي تركها أمام الباب، سوف تدخل ووراءها جيش من الأسئلة المملة، كان عليَّ ألَّا أسمح لها بأن تجرني إلى ساحة المعركة، إنها معركة خاسرة، النساء أفضل من يجيد استخدام السيف الذي يسمَّى "اللسان" يشحذنه جيدًا في أوقات الفراغ نهارًا بالمكالمات التليفونية الطويلة حتى يذبحن به الرجال العائدين ليلًا..

دخلت شاهرةً سيفها في وجهي وبدون مقدمات فاجأتني بطعنة نافذة في القلب وجَّهتها إليَّ بدمٍ بارد فقالت بكل هدوء:

- طلِّقني.

وقفتُ مذهولًا أبحث في صفحات ذاكرتي عن جُرم واحد فلم أجد، هل ظنَّت أنني اقترحت الخروج لإحضار العشاء حتَّى ألتقي بامرأة؟ قلت في نفسي، لم يكن ذلك مبرِّرًا بالطبع، فقد كنتُ أعلم أنها تعلم أن الجوَّ بالخارج كان لا يسمح بأن أُلقي القبض على امرأة، فضلًا عن أن ألتقي بامرأة.

في تلك اللحظة فقدتُ السيطرة..

قررت أن أطلق عليها النار أخيرًا، قررت أن أطلق الطلقة التي ستقتلنا معًا، قررتُ أن أطلق سراح كلمة "الطلاق" التي حبستها في فمي فلم ألفظها طيلة سبع سنين متحملًا مرارتها، تلك الكلمة التي تقيأتها هي في وجهي سبعة آلاف مرة طيلة السبع سنين، كنت أتحمل رائحة القيء الكريهة من أجلها، كنت مستعدًا أن أتحمل إلى آخر العمر لكن الأمر خرج عن المألوف، خرج عن المنطق.

وخرج عن السيطرة...

استدرت نحوها مغمضًا عينيَّ ثم أخذت نفسًا عميقًا جدًا، كان عميقًا لأنني كنت أعتبره آخر أنفاسي من الحياة، الحياة التي كنتُ على وشك أن أطلِّقها، الحياة التي تسمى مارجريت...

فتحتُ فمي لأقول "أنتِ طالق" وقبل أن أنطق بنصف ثانية، انفجرت ضاحكةً!

كانت تضحك ضحكًا هستيريًا كأنها قد أُصيبت بمتلازمة الضحك، بينما أصبت أنا بمتلازمة البلاهة المنغولية فوقفتُ أنظر إليها بعيني طفل منغولي عبيط لا أكاد أصدق أنني نجوت من كارثة محقَّقة، بعدما استوعبتُ متأخرًا جدًا أنها كانت تمزح عندما طلبت الطلاق، لو تأخر ضحكها نصف ثانية حرفيًا لطلقتها!

ذكَّرتني بالطفلة التي كانت تلعب بمسدس فيه طلقة واحدة، لقد

كانت مارجريت تلعب بمسدس فيه طلقة واحدة تسمى "الطلاق"

دخل والد الطفلة المستهتر الذي ترك المسدس في يد طفلته يقول: لا يا صغيرتي، لا تطلقي النار سوف تؤذين نفسك.

كانت طفلة مطيعة ولم تطلق النار على نفسها، أطلقت النار عليه هو فاستقرت الطلقة في عينه، عاش بقية حياته أعور عقابًا له على استهتاره، لقد كنت مستهترًا كما قال ماركوس، كنت مستهترًا كوالد تلك الطفلة المستهتر، لكن ثمة فارق جوهري أن المسدس الذي كانت تلعب به الطفلة المستفزة مارجريت لم يكن يخصُّني لقد كان يخصُّها هي والطلقة العفنة التي كانت فيه كانت طلقتها هي، وهناك فرق جوهري آخر:

الطفلة الغبية لم تكن تصوِّب نحو عيني، لقد كانت تصوب نحو قلبي!

كنت لا أزال واقفًا أبلع ريقي مذهولًا، لا أكاد أصدق أنني نجوت من تلك الكارثة حين فرغت هي من ضحكها فلما رأت منظري أخذت تضحك بهستيريا شديدة مرة أخرى، فنظرتُ إليها نظرة عتاب بائت منذ سبع سنوات، وقلت:

- هذا الشبح الذي يسمى الطلاق سوف يأكلنا معًا يومًا ما

كنت أعاتبها على سنين مضت، سنين أخافتني فيها كثيرًا بذلك الشبح، صوَّبت سلاح الأنوثة نحوي وقالت:

– وماذا أصنع له يا جون؟

قلت لها وأنا أحاصر عينيها الهاربتين:

– تستطيعين قتله بكل سهولة، تستطيعين تركه يموت جوعًا.

نظرت إليَّ متعجبة فأردفتُ قائلًا:

– احرميه من وجبته المفضلة، احرميه من الغَيْرَة

أردفتُ مرة أخرى:

– إلا إذا كنتِ تريدين أن أحرمك من وجبتك المفضلة، قلتها مبتسمًا ناظرًا إلى وجبة السمك التي في يدي، فبادلتني التبسُّم قائلة:

– هل هذه بتلك؟

أومأت برأسي مبتسمًا، فقالت وهي لا تزال تبتسم:

– سوف نتفاوض في هذا الأمر

جلسنا على مائدة المفاوضات تتوسطها وجبة السمك المشوي، كنت أعلم أنه لا تفاوض معها مطلقًا في موضوع الطلاق، فمارجريت لم تكن لتحرم شبحها المفضل من وجبته المفضلة مهما حدث. "الطلاق" شبح مخيف يتغذى على الوجبة المسمومة "الغَيْرَة" شبح يتغذى على السم كيف تكون خطورته؟! شبح يحيا بالموت كيف يكون مخيفًا؟!

لم تكن هناك جدوى من النقاش في موضوع الطلاق، كان نقاشي معها سيكون مثل النقش على الماء...

كان النوم على وشك أن يغزونا في أرضنا فكان علينا أن نبحث عن أرض أخرى لنختبئ فيها، لم يكن هناك بالطبع أفضل من غرفة النوم، كان ذلك معناه أننا سنفرُّ من النوم إلى أرض النوم حيث يذبحنا على السرير بهدوء..

المجرم أطلق النار عليَّ في المنام عشر مرات كانت آخرها طلقة استقرت في رأسي، فاستيقظت مفزوعًا فوجدتني على الأرض عند باب الغرفة راقدًا على ظهري تتعارك يدي اليمنى مع يدي اليسرى، ولولا أنني استيقظت في الوقت المناسب وفضضت الاشتباك بينهما ربما كانتا اتفقتا معًا على خنقي، قمتُ مترنِّحًا مستندًا إلى الحائط في حالة من الهلع الشديد وحين وقفتُ بالكاد على قدميَّ المتأرجحتين تفاجأت به أمامي مصوبًا مسدسه نحوي..

كان ذلك جون المرعوب...

وقف جون المرعوب أمامي في المرآة قابضًا على المسدس بكلتا يديه مصوِّبًا إياه نحوي ممتقع الوجه تنحدر قطرات العرق من جبينه لتروي شفتيه المتشققتين كأرضٍ تشققت عطشًا..

مشمئزًّا من منظري كدتُ أطلق النار على الشخص المرعوب

الواقف في المرآة لكنني تراجعتُ عن تلك الفكرة السيئة، فمارجريت كانت ستستيقظ مفزوعة والأسوأ من ذلك كانت ستستيقظ فتجد زوجها الغضنفر قد تحول إلى شبه ضبع مرعوب، اتخذت طريقي إلى السرير آملًا ألَّا يتكرر الكابوس...

لم أصدق أذني عندما فتحت الباب، وقالت:

- ماركوس ينتظرك.

فتحتُ فمي لأتكلم فأغلقت الباب فأغلقتُ فمي حين فتحت الباب مرة أخرى قائلةً:

- جون أسرع إنه ينتظرك منذ خمس دقائق

فتحت فمي لأتكلم فأغلقت الباب، ففتح الغيظ فمه وأخرج لسانه لي، اعتدلت جالسًا على السرير ثم نظرتُ إلى ساعة الحائط تسع مرات حتى تأكدتُ أنها تشير إلى التاسعة...

ماركوس في بيتي التاسعة صباحًا = جملة لا محل لها من الإعراب.

ببساطة لأن ماركوس لم يكن ليترك بيته في تلك الساعة بالتحديد.

بيت ماركوس هو: مبنى التحقيقات الجنائية اللندني.

وتلك الساعة:هي أول ساعات العمل، الساعة المقدسة عند ماركوس.

كان ماركوس يعتبر مبنى التحقيقات الجنائية بيته الأول فكان يحضر صباحًا قبل عامل النظافة ويغادر مساءً بعد عامل النظافة، كان يفعل ذلك طبعًا لأنه هو عامل النظافة الحقيقي، ماركوس كان ينظف من يحتاج إلى تنظيف فكان ينظف المجرمين من اعترافاتهم المزيفة، وينظف عامل النظافة نفسه إذا كان متسخًا بوسخ الإهمال، كل هؤلاء كان يقوم بتنظيفهم على الناشف أما جون المستهتر فكان يغسله ثم يعصره ثم ينشره ثم يكاد يصاب بالسكتة القلبية؛ لأن جون هو الوحيد الذي ما زال متسخًا..خرجتُ إلى الصالة مترقبًا فلم أجد أحدًا، فوقفتُ أنظر حولي مسترجعًا كلماتها "ماركوس ينتظرك"، "إنه ينتظرك منذ خمس دقائق". أفقت من شرودي مفزوعًا حين ناداني من مسافة ٢٢١٢ متر من قاع كهف "كروبيرا" أعمق كهوف العالم والذي يسمى بالمناسبة "إيـڤرست الكهوف" من شدة عمقه، كان صوته عميقًا كأنه قادم بالفعل من ذلك المكان العميق فوقفت مذعورًا أتلفَّت حولي ولم تطل وقفتي أكثر من خمس ثواني إذ قرَّرت الهروب جريًا من ذلك الشبح المسمَّى ماركوس، لكني لم أكد أخطو خطوتين حتى أوقفني قائلًا:

- توقف يا جون، توقف عن هذا الاستهتار

وقف شعري ووقفتُ معه ملتفتًا ناحية الصوت فتفاجأتُ أنه آتٍ من سماعة الهاتف الموجودة على المنضدة التي أقف بجوارها، عندما قالت مارجريت أن ماركوس ينتظرني كانت تقصد أنه ينتظرني على

الهاتف! التقطت السماعة مسرعًا ووضعتها بجوار أذني بحذر شديد مترقِّبًا قذائف من السب له أسبابه المبررة حين انطلقت قنبلة من فمه سارعتُ بإبطال مفعولها بتنحنح عبقري فجاءت الجملة القنبلة مبتورة كالتالي:

- أيها الـ...

كنت أعلم أنه سيقول: "أيها المستهتر اللعين" فقلتُ:

- أيها المستهتر اللعين، أليس كذلك؟

صرخ بشدة:

- أنت حتى لا تستحق أن أطلق عليك المستهتر اللعين

فتحتُ فمي لأتكلم، فأغلق الخط فأغلقتُ فمي حين فتح الخط مرة أخرى قائلًا:

- أريدك هنا في المنزل حالًا

فتحتُ فمي لأتكلم فأغلق الخط ففتح الغيظُ فمه ولم يخرج لسانه لي تلك المرة، ولكن:

بصق عليّ.

***

في مكانٍ منعزلٍ ربضَ منزل ماركوس كالشبح في وسطِ حديقة أشبه بغابة مخيفة، كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحًا عندما وقفتُ أمام المنزل أقول لنفسي: إذا كان هذا هو المنظر صباحًا، فكيف يكون المنظر ليلًا؟!

اللص غير المحترف لم يكن يجرؤ على مجرد التفكير في المجيء إلى ذلك المنزل المخيف، أما اللص المحترف فسوف يحتاج إلى التفكير في ذلك الأمر ألف مرة على الأقل، ذلك بالطبع في حالة عدم تواجد ماركوس بالداخل أما في حالة تواجد ماركوس فسوف يتحتم على ذلك اللص المحترف أن يفكر ألف ألف مرة على الأقل؛ لأن ماركوس من المرجَّح جدًا سوف يجعله يعتزل السرقة دوليًا ومحليًا منهيًا مشواره الاحترافي إلى الأبد..

البوابة كانت مفتوحة، وضعت قدمًا واحدة بالداخل، ثم وقفت شاردًا عندما تذكرتُ مقولة ماركوس: لا تدخل من باب تُرك لك مفتوحًا، إنه فخ.

- إنه ليس فخًا أسرع بالدخول

نظرت ناحية الصوت متفاجئًا، فوجدته يقف في الشرفة بوجهه العابس الذي لا تجرؤ ابتسامة على أن تقترب منه، أي ابتسامة حمقاء

فكرت في الاقتراب منه قُتلت على الفور بدم مُثلَّج، تلك هي الابتسامة الشاحبة التي قد تراها على وجهه مرة أو مرتين في السنة تلفظ أنفاسها الأخيرة، جالت بخاطري تلك الأفكار فداعبت وجهي ابتسامة لطيفة لم تلبس أن ولَّت هاربة حين زأر الأسد ماركوس قائلًا:

- ماذا تنتظر؟ أسرع بالدخول

دخلت مسرعًا في صورة حمل وديع سيودِّع الوداعة بعد قليل، كان من المفترض أن الأسد ماركوس سوف يلوكني في فمه كالعادة تأنيبًا وتوبيخًا وتبكيتًا على استهتاري الجسيم، كان عليَّ أن أقدم وجبة مشبعة لذلك الأسد الجائع حتى لا يأكلني أنا كالعادة..

عند الباب مدَّ إليَّ يده ليصافحني مصافحة روتينية قبل البدء بأكلي، فمددت إليه يدي بالوجبة المشبعة فوقف متسائلًا: يا ترى ما الوجبة التي تنطوي عليها هذه الورقة المطوية؟ هل هي جاموسة برية أم حمار وحشي، أم غزالة صغيرة غير مشبعة؟ فأشرت إليه بيدي أن تفضل بالأكل في إشارة مطمئنة إلى أن الوجبة عبارة عن فيل إفريقي كامل سوف يشبعه أسبوعًا كاملًا.

- ما هذا؟

سألني مندهشًا بعدما قرأ الرسالة، فقلت:

- وجدتُ هذه الرسالة أمام باب الشقة الليلة قبل الماضية.

- ولماذا لم تأتني بالأمس؟

قالها بغضب فقلت محتجًّا:

- ماركوس، هل نسيت أن الأحد هو اليوم الوحيد الذي نأخذ فيه قسطًا من الراحة؟

قال محدقًا في وجهي:

- كلمة راحة ليست موجودة في قاموس العمل الجنائي.

قلت محدقًا في وجهه أيضًا: هذا لأنك من حديد لا تتعب أيها الرجل الحديدي الجبار.

قلت ذلك في نفسي بدون أن أنطق فلما رآني مستسلمًا كالعادة اكتفى مشكورًا بنظرة احتقار، ثم تركني واتجه إلى الداخل وهو ينظر إلى الرسالة يلتهمها بعينيه التهامًا فتبعته إلى الداخل مغتاظًا..

جاء الأسد ماركوس بعدما غاب عشر دقائق حاملًا كوبين من القهوة، ممسكًا فريسة بأسنانه لم أكن في حاجة إلى ذكاء كثير حتى أعرف أن ذلك مِلَفّ القضية، المِلَفّ الذي طلبه المدير على وجه السرعة

"لقد نسيت أمر المِلَفّ تمامًا" قلتها في نفسي حين بصقه أمامي على المنضدة قائلًا:

- هل تعرف ما هذا؟

زأر بها وهو يضع كوبي القهوة على المنضدة، فتدحرج الحرج كالحجر فسقط في فمي فلم أستطع النطق فابتلعته برشفة من القهوة، ثم قلت:

- دعني أخمِّن، هل هذا ملف القضية؟

قال وهو يقلِّب صفحات الملف:

- هذا ملف القضية الذي تركتني أقوم بكتابته وحدي يا سيد جون.

كانت ابتسامتي الصفراء المعلَّبة جاهزة دائمًا لمثل تلك المواقف المحرجة، قال وهو لا يزال يقلب صفحات الملف:

- القتيل الذي يدعى"السيد ويليام سميث" كان من أغنى أغنياء لندن، لم يترك أي أبناء، لم يترك سوى زوجته فقط.

قالها وقام مسرعًا ثم عاد بعد دقيقة وهو يقول:

- هذه صورته.

كنت أنظر بعيدًا حين وضع الصورة على المنضدة وعندما التفتُّ كان القتيل قد شرب قهوتي بالكامل!

أطاح ماركوس بكوب القهوة بغير قصد فانسكبت القهوة على فم القتيل في الصورة وانسابت على بقية وجهه فلم أتبين ملامحه، قام ماركوس وألقى بالصورة من النافذة وحينما رجع قلت مبتسمًا:

- يبدو أن القتيل كان مدمنًا شرب القهوة

كأنه لم يسمعني أخذ يقلب صفحات المِلَفّ فتنحنحتُ قائلًا:

– ألم تتوصل إلى أي معلومة مفيدة في القضية حتى الآن؟

واصل النظر في الملف قائلًا:

– لقد توصلتُ إلى جميع المعلومات الموجودة في هذا الملف، فهل توصلت أنت إلى معلومة مفيدة؟

مددت يدي إلى الرسالة التي كان قد وضعها على المنضدة فالتقطتها، ثم أدخلتها في جيب معطفي قائلًا:

– أنا لا أحتاج إلى أن أتوصَّل إلى المعلومة المفيدة، المعلومة المفيدة هي التي تصل إلى باب شقتي.

فهم طبعًا أنني أقصد الرسالة التي جاءتني بدون مجهود، فحدَّق في وجهي بتحدٍّ وقال:

– إنها معلومة بقدم واحدة، لا بد لها من قدم أخرى حتى تستطيع السير، وحتى نستطيع اَلسير وراءها، فتدلنا على المجرم.

طبعًا كان يقصد بالقدم الأخرى رسالة أخرى فيها هويَّة المجرم.

في الحرب الكلامية: تنحنح + صمت = الراية البيضاء.

رفعت الراية البيضاء ثلاث مرات عندما تنحنحتُ ثلاث مرات بقوة حتى أصابني السعال الديكي، وصحتُ في آخر الأمر كالديك فلما

رأى الأسد ماركوس أنني مجرد ديك حقير لا أستحق أن يتعب نفسه في مواصلة نتف ريشي أعرض عني وعاد ينظر في مِلَفّ القضية باهتمام شديد...

كنا بعد العِشاء حين جاء ممسكًا بكوبين آخرين من القهوة قائلًا:

- إنها تنتظرك على الهاتف.

طبعًا لم يكن هناك غيرها، المحقِّقة مارجريت التي تريد أن تتحقق من عدم تواجدي مع أنثى أخرى، غيرتها السوداء بدأت عملها الأسود بمجرد أن تجاوزت الساعة الثامنة مساءً، في تلك المرة كان لديَّ الدليل القاطع على أنني لست مع أنثى أخرى، ماركوس قد ردَّ عليها وسمعت صوته بأذنيها، ماركوس الذي هو أبعد كائن حي عن كلمه أنوثة..

رفعت السماعة وقلت مغتاظًا:

- هل تأكدتِ الآن من أنني مع الأنثى الألطف في الكون؟

لم أسمع ردًّا وكنت على يقين من أنها تبتسم، فقد كنت أحكي لها كثيرًا عن ماركوس وعن عبوسه الذي أوشك على الدخول في موسوعة جينيس

- جون، أنا فقط أردت الاطمئنان عليك

- وهل أصبحتِ مطمئنة الآن؟ أرجو أن تكوني مطمئنة الآن أنني

لست مع امرأة، اطمئني تمامًا، فأنا مع عدو المرأة.

أغلقتُ الخطَّ، واتجهت نحو عدو المرأة الجالس بعيدًا ناويًا الانصراف بعد يوم طويل مجهد أمضيناه مشيًا على الأقدام في دهاليز القضية التي كانت مثل متاهة لها ألف مدخل وليس لها مخرج واحد، ظننت في أول الأمر أن ماركوس قد طلب مني المجيء إلى منزله حتى نقوم بالاستجوابات الخاصة بالقضية، والتي يكون بعضها أحيانًا خارج مكان العمل تبعًا لظروف معينة، لكنه فاجأني وأمضينا النهار بالكامل داخل المنزل، ماركوس كان غير متوقَّع بالمرة ظننت أن الأمر قد انتهى عند ذلك الحد، وأنه من حقي الانصراف بعد ذلك اليوم المجهد قائلًا: "أراك غدًا يا ماركوس" ولكن قبل أن أنطق فاجأني المخلوق الحديدي للمرة الثانية، وقال:

- هيا بنا.

قالها ثم قام متجهًا نحو الباب، فتجمَّدتُ في مكاني تمثالًا من الجليد على وشك الذوبان من حرارة الغيظ الهائلة...

- هل تتَّهمني أيها المحقق؟

قالها بغضب شديد، فردَّ ماركوس قائلًا:

- أنا لم أتهمك بشيء يا سيد أوليـفر

- ماذا يعني إذًا استجوابك هذا؟

صرخ بها الرجل المتغطرس بشدة ناظرًا إلى ماركوس بعينين مخيفتين، فأشاح ماركوس بوجهه مظهرًا عدم الخوف بينما كنتُ أرتعد خوفًا..

كان السيد أوليـفر الرجل الأغنى في إنجلترا كلها، كان قد صعد على هرم أمواله الطائلة حتى طال مكتب رئيس الوزراء الكائن في الطابق الثالث بالمنزل رقم ١٠ بشارع داونينغ مقر رئاسة الوزراء، لقد كان السيد أوليـفر صديقًا شخصيًا لرئيس الوزراء البريطاني نفسه، وكان ذلك يعني شيئًا واحدًا هو أن ذلك الرجل ذو الأموال الطائلة لم يكن تحت طائلة القانون.

- يد القانون تطول أي إنسان في إنجلترا

مسحتُ الرذاذ الذي تطاير من فم ماركوس حين صرخ بها في وجهي، وقلت:

- ماركوس، يد القانون التي تتحدث عنها لا تطول إلا رقبة الأقزام من أمثالنا أما ذلك الرجل فطويل جدًا، طويل بارتفاع ثلاثة طوابق كاملة، لن تستطيع يد القانون الإمساك برقبته أبدًا

ازداد صراخه وازداد الرذاذ المتطاير من فمه أيضًا، وهو يقول:

- حتى لو كانت رقبته عند الطابق الألف سوف تطولها يد القانون.

كنت أكره بشدة الرذاذ المتطاير من الفم فصمتُّ تمامًا لكي يصمت، كان ذلك هو الحوار الذي دار بيننا في الطريق إلى قصر السيد أوليـڤر، لم يستمع ماركوس لنصيحتي وأصر على أن يخضع ذلك الحوت الأزرق للاستجواب

– هل تستطيع أن تقول لي ماذا يعني استجوابك هذا؟

كرر الرجل سؤاله مقربًا أنفه من أنف ماركوس، كنت أشفق على أنف الرجل الذي سيخترقه أنف ماركوس المدبب، كنتُ أشفق أيضًا على ماركوس فهو وإن كان أسدًا فقد وقف تلك المرة أمام حوت أزرق، تمنيت أن أهمس في أذن ماركوس بهذه المعلومة المفيدة: الحوت الأزرق لسانه فقط يعادل وزنه وزن فيل متوسط الحجم!

في الحقيقة كنتُ أرى أن صياحي كديك في ذلك الموقف أكثر نفعًا من زئير الأسد ماركوس، الذي لا يريد أن يتنازل عن كبرياء ملك الغابة، والذي سيتسبب في أن يبتلعنا ذلك الحوت، فصحتُ قائلًا:

– سيد أوليـڤر، كلمة الاستجواب معناها الحرفي أخذ الجواب، ما علاقة هذا بكلمة الاتهام؟

صياحي فضَّ الاشتباك بينهما، فساد الصمت والتفت السيد أوليـڤر نحوي كأنه لم يكن يشعر بوجودي، وتبدَّلت نظرته المتغطرسة إلى نظرة إعجاب فقد لفتُّ نظره إلى أن كلمه استجواب ليس لها علاقة أصلًا

بكلمة اتهام، لمحتُ نظرة إعجاب أيضًا في عين ماركوس لكنَّ الجاحد طرد ذلك الإعجاب شر طردة وأغلق عينه في وجهه حين فتح السيد أوليـڤر فمه قائلًا:

– تشرفتُ بمعرفتك يا سيد...

أكملت له قائلًا:

– جون، المحقق جون يا سيد أوليـڤر.

لم أكن أصدق أن الرجل قد نزل من أعلى هرم الأموال ووقف متواضعًا معنا على الأرض، كان من الذكاء ألا أتركه واقفًا بجوار الهرم حتى لا يصعد مرة أخرى فأشرتُ بيدي نحو الكراسي فائقة الفخامة، بعدما جلسنا وزيادة في الاحتياط قمت بربطه على الكرسي ربطًا جيدًا، فقلت:

– سيد أوليـڤر، ليس كل من نقوم باستجوابه نسميه متَّهمًا، أنت في مكان عالٍ جدًا لا تطولك يد الاتهام.

رمقني ماركوس الجالس تجاهي بغيظ عندما قلت: "لا تطولك يد الاتهام" فهذا الكلام يساوي ضمنيًا "لا تطولك يد القانون".

مرتديًا قناع النفاق قلت:

– سيد أوليـڤر، الآمال معلَّقة عليك فيما ستمدنا به من معلومات

عن السيد ويليام سميث.

رمقني ماركوس بنظرة معناها: أيها المنافق جون، أنت متميز كمنافق لا كمحقق.

نظرت له نظرة معناها عزيزي ماركوس للتميز وجوه عديدة.

سكب الرجل دموعه قائلًا:

- لقد كان ويليام من أعز أصدقائي، صمت قليلًا ثم قال وهو يمسح دموعه الغزيرة:

- لقد قُتل غدرًا خارج منزله.

من مِلَفّ القضية: السيد ويليام سميث البالغ من العمر خمس وستون سنة قُتل خارج منزله على بُعد خمسمائة مترًا في أجواء ضبابية في ليلة الحادي عشر من شهر يناير..

قلت بهدوء:

- سيد أوليـڤر، لقد علمنا بالصداقة الوطيدة التي كانت بينك وبين السيد ويليام فجئنا من أجل معلومة تفيدنا في القضية، هل لديك معلومة مفيدة يا سيد أوليـڤر؟

نظر إليَّ متأثرًا، ثم قال:

- ويليام كان إنسانًا رائعًا.

هل هذه معلومة مفيدة أيها الحوت؟! قلت ذلك في نفسي خالعًا قناع النفاق، ثم ارتديت القناع مرة أخرى قائلًا:

- إنها معلومة مفيدة بالطبع يا سيد أوليـفر، هل هناك غيرها؟

صمت طويلًا ثم نظر إليَّ قائلًا:

- السيد جاك والسيد هاري

لفظ الرجلين من فمه كأنه يلفظ نخامتين قذرتين، ثم أردف قائلًا:

- إنهما...

قلتُ متلهفًا:

- إنهما ماذا يا سيد أوليـفر؟

حدق في وجهي، وقال:

- إنهما من أعدى أعداء ويليام، لقد كانا كذلك دائمًا.

قلت مهتمًا:

- هل تتهمهما بقتل السيد ويليام؟

- هناك دلائل كثيرة تشير إلى تورطهما

قالها بحسم وثقة، فقلت متلهفًا بشدة:

- وما تلك الدلائل يا سيد أوليـفر؟

ألقى الرجل قنبلة يدوية حين رفع يده قائلًا:

- لقد قامت صداقتهما على عداوة ويليام

صمت قليلًا، ثم ألقى قنبلة فراغية فقال:

- وكانا يملآن أوقات فراغهما بالتفكير في كيفية إسقاطه.

صمت قليلًا ثم ألقى قنبلة هوائية(٢) فقال:

- وطارا في الهواء خارج البلاد بطائرتهما الخاصة قبل مقتله بثلاثة أسابيع.

ألقى الرجل ثلاث أنواع من القنابل كافيه لإبادة شعبًا بأكمله..

هل هناك نوع رابع من القنابل تود إلقائه يا سيد أوليـڤر؟

هذه هي الدعابة التي كنت سأداعبه بها إذا لم يكن حوتًا أزرق، بالطبع لم يكن ليجرؤ ديك حقير مثلي على مداعبة حوت عنبر قزم، فكيف بأكبر حوت أزرق في إنجلترا كلها، رأيت أن أكتفي بذلك القدر وأنهي المقابلة قبل أن يذل لساني بمداعبة مثل هذه فيبتلعنا...

بعدما خرجنا قال لي ماركوس:

- ما كل هذه البراعة أيها المحقق الفذّ جون؟

٢ القنابل الفراغية والقنابل الهوائية قنابل موجودة ومستخدمة في الحروب

- ماركوس لا بد أن تشكرني.

قلتها محدقًا في وجهه، فقال ساخرًا:

- أشكرك لأنك كنت مرتعدًا؟

أحسست أن سوأتي قد انكشفت، فقلت مواريًا إياها:

- لا أنا الذي أشكرك على شجاعتك التي كادت أن تدمرنا، هذا الرجل صديق شخصي لرئيس الوزراء، هل تعي مقدار القوة التدميرية لهذه الجملة؟

أصر على كشف سوأتي مرة أخرى فقال:

- لقد كنت تمثِّل القانون يا جون، لقد أظهرت القانون مرتعدًا أمام هذا الرجل المتغطرس

كان عليَّ أن أواري سوأتي التي انكشفت للمرة الثانية، فقلت:

- ماركوس أظن أنك لم تتركني أدير دفَّة الحوار مع هذا الرجل إلا لأنني قبطان ماهر.

نظر نحوي بطرف عينه بدون أن يردّ، فابتسمتُ ابتسامة انتصار حين فاجأني بطوربيد من فمه وقال:

- قبطان مرتعد.

ذلك الطوربيد حطَّم سفينتي وتركني في عرض البحر قبطانًا بلا سفينة، قبطان مكشوف السوأة للمرة الثالثة على التوالي.

في تلك اللحظة كنا قد وصلنا إلى مفترق الطرق وكان ذلك شيئًا جيدًا جدًا..

فأنا لم أعد أجد لباسًا يواري سوأتي اللعينة.

***

اليوم التالي..

السابعة مساءً..

ارتديتُ قناع النفاق المعتاد الذي بمقاس وجهي تمامًا وبابتسامة متلونة بجميع ألوان الطيف، قلت:

- سيد جاك وسيد هاري.

نظر الرجلان نحوي، فقلت:

- أهلًا بكما في بلدكما الثاني لندن.

لم ترُق لهما مزحتي السخيفة، فالرجلان كانا من لندن لكنني كنت ألِّمح لهما أنهما منذ شهر كامل خارج البلاد.

- إذا كنت هنا من أجل أن تستجوبنا فأنصحك بالرحيل حالًا.

قالها السيد جاك بلهجة حادة يريد إخافتي فكان من الذكاء أن أخلع قناع النفاق وأرتدي قناع الشجاعة مؤقتًا، القناع الوحيد الذي لم يكن بمقاس وجهي ١٠٠٪ بالكاد غطيتُ وجهي بالقناع وبنظرة حادة قلتُ:

- سيد جاك، لن أسرق من وقتكما الثمين أكثر من عشر دقائق.

تلقَّفني السيد هاري وبلكمة خطَّافية كادت تسقط القناع قال:

– لن تأخذ حتى عشر ثواني.

أتبعها السيد جاك بلكمة أخرى أشد منها، فقال:

– بل لن يأخذ عشرة أجزاء من الثانية يا هاري.

قالها محدقًا في وجهي، فسقط القناع وظهر وجهي مرتعدًا فلمحت ابتسامة خفيَّة متبادلة بينهما، لقد انتصرا أو هكذا ظنَّا...

لقد كانا رجلين لرجل، كان عليَّ حتى أستطيع الانتصار عليهما أن أفرق بينهما وكان أمامي واحد من خيارين: إما إلقاء قنبلة مسيلة للدموع، وإما إلقاء قنبلة الرائحة الكريهة(٣) ولأنهما أغاظاني بتلك الابتسامة العفنة اخترت لهما قنبلة الرائحة الكريهة.

وقفا ينتظران انسحابي مهزومًا بين لحظة وأخرى لكني فاجأتهما بالقنبلة قائلًا:

– لقد اتهمكما السيد أوليـفر باتهامات فظيعة، فإذا خرجتُ من هنا حالًا قبل أن تردا على هذه الاتهامات فرائحتها الكريهة سوف تفوح غدًا في جميع صحف إنجلترا.

٣ قنبلة الرائحة الكريهة: في عام ١٩٩٨ كُلِّفت العالمة في علم النفس الإدراكي باميلا دالتون بتطوير قنبلة كريهة الرائحة من أجل التفريق بين المتظاهرين في حالات الشغب، تتكون تلك القنبلة من عدة مواد بيولوجية كريهة الرائحة من بين تلك المواد القيء والفضلات الآدمية والشعر المحترق والقمامة المتعفنة.

نجحت القنبلة بالفعل في التفريق بينهما، فاتجه كل واحد منهما إلى نافذة من نوافذ القصر يستجديان هواءً نقيًا بعدما خنقتهما الرائحة الكريهة، قنبلة واحدة نجحت في إيقاف جيش الغطرسة المدجج بالأموال الطائلة.

انفردت بالسيد جاك الذي وقف بجوار النافذة المجاورة لي وطعنته بابتسامة خبيثة قائلًا:

– سيد جاك، هل الرائحة كريهة إلى هذا الحد؟ فماذا لو فاحت هذه الرائحة غدًا في جميع أرجاء إنجلترا؟

رد بتكبر قائلًا:

– قل ما عندك بسرعة فليس لدينا وقت.

– في الحقيقة لقد ألقى السيد أوليـڤر ثلاث قنابل ستدوِّي جميعها غدًا إلا إذا أبطلتما مفعولها الآن.

تلاقت نظراتهما في ترقُّب وقلق حين بدأت بالقنبلة الأولى قائلًا:

– لقد اتهمكما السيد أوليـڤر بأن صداقتكما قامت على عداوة السيد ويليام.

فتح السيد هاري فمه للرد، فأشار إليه السيد جاك وقال:

– لقد قامت صداقتنا قبل أن نتعرف على السيد ويليام أصلًا، فالسيد

ويليام ليس من لندن وقد نشأت صداقتنا قبل أن يأتي إلى لندن بزمن بعيد وتستطيع التحقق من ذلك بنفسك.

كانت مفاجأة مدوية، لقد انفجرت قنبلة اللعين أوليـڤر في وجهي أنا لم يفوت السيد جاك الفرصة وردَّ لي الطعنة، فطعنني بابتسامة خبيثة قائلًا:

– ها قد أبطلنا مفعول القنبلة الأولى نحن في انتظارالقنبلة الثانية.

ارتديت قناع التماسك فلم أبلع ريقًا ولم أبتسم ابتسامة صفراء، وإنما قلت ببرود:

– لقد اتهمكما أيضًا بمحاولة إسقاط السيد ويليام ماليًا

تصدى السيد هاري لتلك القنبلة قائلًا:

– لقد كنا نتنافس منافسة عادية جدًا ككل رجال الأعمال وإلا فالسيد ويليام هو الآخر يكون متهمًا بأنه كان يحاول إسقاطنا ماليًا.

انفجرت قنبلة اللعين الثانية في وجهي وكادت تسقط قناع التماسك والذي أصبح مهترئًا، فقلتُ ببعض التماسك:

– أنصحكما بأن تجتمعا معًا لإبطال مفعول القنبلة القادمة، فهي قنبلة معقدة نوعًا ما..

قال السيد هاري ساخرًا:

– إنها القنبلة الثالثة والأخيرة كما وعدنا يا جاك، أليس كذلك؟

رد السيد جاك قائلًا:

– فلتكن ألف قنبلة يا هاري، فالقنابل لا تنفجر في وجوهنا نحن.

قالها وأخذا يضحكان ضحكًا هستيريًا، فجاء الغيظ يتدحرج على هيئة قنبلة وانفجر في وجهي هو الآخر.

– لماذا طرتما خارج البلاد قبل مقتل السيد ويليام بثلاث أسابيع؟ هل استأجرتما من يقتله ثم خرجتما من البلاد حتى تبعدا الشبهة عنكما؟

ألقيتها أمامهما فجأة فتوقفا عن الضحك وتبادلا النظرات، ثم أخذا يضحكان بشدة مرة أخرى فقلت بعدما بلعتُ ريقي:

– لماذا تضحكان هكذا، هل ألقيت عليكما مزحة؟!

اشتد السيد هاري في الضحك، وقال:

– نعم التي ألقيتها مؤخرًا هذه ليست قنبلة إنها مزحة.

كاد السيد جاك يموت من شدة الضحك، وهو يقول:

– لا.. لا يا هاري، إنها قنبلة، لكنها قنبلة منزوعة الفتيل لا تحتاج إلى من يبطل مفعولها.

أردف قائلًا وهو يسعل:

- لقد سافرنا من أجل عقد شراكة بيننا وبين رجال أعمال من تايلاند، وذلك معلن في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة.

- نعم، بل وبمباركة وزير التنمية نفسه

قالها السيد هاري وهو يسعل أيضًا.

كان من الواضح أن الملعون أوليـڤر قد أسلمني، كان لا بد من أن أنسحب قبل لقطة النهاية في ذلك الفيلم الكوميدي الرخيص، اللقطة التي سوف يراني فيها الجمهور منتحرًا بمسدسي..

اتجهت نحو باب القصر منسحبًا، فقام صاحب القصر السيد جاك بواجب الضيافة على أكمل وجه فركل مؤخرتي عن بعد ركلة شديدة بقدمه التي اتَّضح لي أنها طويلة مثل يده، حيث قال صارخًا:

- سوف أجعلك عبرة.

وقفت منتصبًا من شدة الرعب، ثم التفتُّ إليه فأردف قائلًا:

- كيف تتجرأ أيها المحقق الحقير على أن تأتي هنا لكي تتهمنا بهذه الاتهامات الحقيرة؟

لم يكتفِ اللعين بالقنابل التي انفجرت في وجهي ولوح بالقنبلة النووية حيث قال:

- أنت لا تعلم مدى قوة علاقتي بوزير الداخلية

لوحت له بالقنبلة الهيدروجينية قائلًا:

- سيد جاك، لقد أصبحتُ على علاقة جيدة جدًا بالسيد أوليـڤر الذي هو عدوكما اللَّدود والسيد أوليـڤر كما تعلم صديق شخصي لرئيس الوزراء

تعمدتُ التلويح بالقنبلة بابتسامة صفراء فاقعة؛ لكي ينفقع من شدة الغيظ، أما بالنسبة للسيد هاري فقد كنت مطمئنًا جدًا إلى أنه سينفقع عاجلًا أو آجلًا، فقد كان كرشه عبارة عن كرة مستديرة هائلة الحجم سوف تسأل نفسك سؤالًا منطقيًا جدًا عندما تسعد برؤياه: كيف خرج ببطنه اللعينة من بطن أمه عندما كان طفلًا صغيرًا؟!

بعدما لوحت بالسلاح الهيدروجيني لم ينبس أحدهما ببنت شفة، فطعنتهما معًا بابتسامة انتصار مستحقَّة وخرجت متجهًا إلى المنزل...

كان من الطبيعي جدًا أن تختتم زوجتي العزيزة انفجارات تلك الليلة بانفجار أنثوي رقيق اخترق الغشاء الرقيق لأذني والمسمى بطبلة الأذن، حيث صرخت بشدة قائلة:

- هل جئت بدونها هذه الليلة أيضًا؟

كانت تقف مكان الباب المفتوح كقاطع طريق، ولسان حالها يقول لن تمرَّ من هنا هذه الليلة بدون البضاعة الثمينة، البضاعة الثمينة كانت عبارة عن الهدية التي وعدتها بها بعدما حصلتُ على المكافأة

السنوية، كنت أنسى تلك الهدية كل ليلة حتى جاءت ليلة الانفجارات، وانفجرت مارجريت في وجهي هي الأخرى لتؤكد المقولة التي تقول: الانفجارات لا تأتي فُرادى.

لم أنطق بكلمة، فقط أخرجتُ الحقيبة المكتظة بالنقود من جيب معطفي ورفعتها أمام عينيها مبتسماً في إشارة واضحة إلى أنني اصطحبت الحقيبة معي في الصباح عازمًا على إحضار الهدية في المساء، المشكلة فقط أن ذاكرتي كانت في عطلة رسمية منذ توليت التحقيق في القضية ذات الثماني والتسعين طعنة، لم يشفع لي حسن نيتي شيئًا، وظلت في مكانها متقمصةً شخصية قاطع الطريق محدقة في وجهي بنظرة معناها:

إذا دخلت الآن بدون البضاعة ستلقى مني بالداخل ما لن تلقاه من أي قاطع طريق آخر في حياتك.

كنت أكره النَّكد خلف الأبواب المغلقة، فأبدلت ابتسامتي البيضاء بواحدة أخرى صفراء، ثم استدرت متجهًا إلى "جريت فروج" أرقى محل مجوهرات في لندن..

دخلت إلى المحل الأنيق هادئ الإضاءة والديكور بصحبه آنستين تؤنساني، الرسالة التي احتلَّت جيب معطفي الأيسر والحقيبة التي أطلَّت برأسها من الجيب الأيمن، والتي كانت مكتظة بعشرة آلاف باوند قيمة المكافأة السنوية..

جلست على المَقْعَد الوثير بين أثرى أثرياء لندن فتفاجأت برجل تجاهي يرمقني على بعد ثلاثة مقاعد منِّي، فلما وقع نظري عليه تظاهر بالانشغال بالمشغولات الذهبية، مرَّت دقيقه تلو الأخرى حتى مرت عشر دقائق كاملة لم ينظر إليَّ الرجل خلالها نظرة واحدة وكأنه لا يشعر بوجودي، فشردت متذكرًا الرجل الذي رأيته يرمقني بداخل مطعم سي فريش فطاردته ظانًا أنه صاحب الرسالة، ثم اتضح لي بعدها أنني كنت واهمًا فتوجست بشدة من أن أكون مريضًا بمرض "الوهم النفسي" وبالتحديد "هوس الاضطهاد" أفقت من شرودي موقنًا بأنني كنتُ واهمًا عندما توهمت أنني مريض بمرض الوهم، حيث تفاجأت بأن الحقيبة ليست في جيب معطفي وأن الرجل قد انطلق بسرعة الفهد، فانطلقت وراءه بسرعة أسد غاضب اختطفت منه قطعة لحم، فظهرت أمامي وأنا أجري الغزالة المسماة مارجريت تسنُّ لسانها وتتوعدني بتقطيعي إربًا إذا أخفقت في استعادة قطعة اللحم الثمينة، التي تقدَّر بعشرة آلاف باوند والتي بدونها لن تشم رائحة الهدايا طيلة السنة، كان الفهد اللعين يجري بسرعة جنونية وكأنها آخر قطعة لحم سوف يأكلها في حياته، لم يكن مسموحًا له بالطبع إلا بأن يشم رائحتها وإلا فأنا لن أشم رائحة الراحة طيلة السنة حتى موعد المكافأة السنوية في السنة التي تليها، فضلًا عن ذلك كان من المحتمل بنسبة لا بأس بها أن تلك السنة لا تأتي إلا وأنا مكيَّس في أكياس على هيئة قطع لحم صغيرة، عقابًا لي على أنني أخفقتُ

في استعادة قطعة اللحم الثمينة، على كل حال كنتُ أفضل الموت بتلك الطريقة على أن أموت ٣٦٥ مرة خلال السنة بداء النَّكد النسائي الذي لم تعرف البشرية داءً يشبهه

بما أن: سرعة الفهد = ١٢٠ كم / ساعة.

وسرعة الأسد = ٨٠ كم / ساعة.

إذًا من المستحيل الإمساك بالفهد اللص إلا بواحد من أمرين:

الأمر الأول: أن أتحول إلى بطة وبالتحديد بطة حمراء الصدر، فهذا النوع من البط أسرع من الفهود! حيث تصل سرعة البطة إلى ١٣٠ كم / ساعة

الأمر الثاني: أن أخرج مسدسي وبطلقة واحدة أصيب رجل الفهد السريع، فيتحول هو إلى بطة عرجاء تصل سرعتها إلى رَقْم تافه لا يستحق الذكر،فأقوم بالإمساك به بكل سهولة.

حين أخرجت مسدسي كان الفهد قد أصبح في حجم قطة صغيرة، كان قد ابتعد جدًا وابتعد معه أيضًا احتمال التصويب نحو رجله، بينما كان يقترب وبشده احتمال التصويب نحو ظهره لأن احتمال أن تصيب الطلقة رجله أصبح في تلك اللحظة لا يتعدى العشرين بالمائة مع الأخذ في الاعتبار أن هناك احتمالًا لا بأس به أن تنحرف الطلقة وبدلًا من أن تصيب ظهره تستقر في رأسه، استقر رأيي على التصويب نحو ظهره

مضطرًا، ولكن قبل أن أضغط على الزناد بجزء من الثانية توقف الرجل فجأة وبدا لي من بعيد أنه يتعارك مع رجلين، كنتُ قد لاحظت من البداية أنهما يجريان أمامه، لكن تركيزي عليه أخرجهما تمامًا من دائرة اهتمامي التي كان مركزها هو وحده، بعد لحظات رأيتُ الرجلين يهربان بينما اتخذ الرجل طريقه نحوي بأقصى سرعة، كنا كقطارين سريعين على وشك الاصطدام..

توقفت في مكاني فجأة متعجبًا حين لمحت الحقيبة مع الرجل الذي هدَّأ من سرعته كقطار بخاري في محطته الأخيرة، كان البخار يخرج من فمه بكثافة وهو ينهج بشدة حين مدَّ يده بالحقيبة نحوي قائلًا:

– معذرةً يا سيدي، لم أستطع الإمساك بهما

أخذت منه الحقيبة في بلاهة قائلًا:

– لا بأس، أشكرك على كل حال.

أخرجني من بِرْمِيل البلاهة الذي انغمست فيه حين قال:

– لقد قاما بخطف الحقيبة منك داخل المحل فقمتُ بالجري وراءهما حتى أستردها لك.

ابتسمتُ ممتنًّا له وقلتُ:

– أشكرك بشدة.

كان عليَّ أن أكافئه ببعض الباوندات فمددت يدي لأفتح الحقيبة، فقبض على يدي بكلتا يديه وقال بلطف بالغ:

- أرجوك لا تفعل.

أصابتني كلماته اللطيفة بجروح نفسية غائرة، كنتُ أنزف ندمًا لأنني كدتُ أطلق النار على الرجل اللطيف الذي استرد لي الحقيبة ولم يقبل حتى أخذ مكافأة مستحقة...

اتخذت طريقي راجعًا مرة أخرى إلى محل المجوهرات قابضًا على العشرة آلاف باوند بعد أن قاموا بمحاولة فرار فاشلة، والتي لو نجحت للحقت بي عشرة آلاف فضيحة في صباح اليوم التالي، وذلك ببساطة لأن الناس قد شاهدوني وأنا أجري شاهرًا مسدسي ومن غير المشكوك فيه أن رائحة الخبر كانت ستفوح حتى تصل إلى أنوف الصحفيين اللعينة التي لا تشم إلا الروائح الكريهة، وكنت سأقرأ في اليوم التالي هذا الخبر اللعين:

المحقق جون الذي من المفترض أن يحفظ لنا أموالنا من اللصوص قد سرق أمواله اللصوص.

الذئب الواقف أمامي ينظر إلى حقيبتي باشتهاء كان يسنُّ أسنانه ويمنِّي نفسه بقضمة كبيرة من قطعة اللحم حين أشرتُ إلى عِقد من الذهب المرصَّع بالألماس، اتجه الرجل نحو العِقد بسرعة مذهلة ثم

عاد به مرتديًا القناع الرسمي لكل بائع، تلك الابتسامة الدائمة التي لا تفارقه إلا بعد أن يفرق بينك وبين أموالك.

عيناي التصقتا بالعقد البديع لكنهما كانتا أشد التصاقًا بالسعر البديع المكتوب في الورقة التي وضعها الرجل أمامي فجأة والذي كان يساوى فقط: ٩٩٧٠ باوند.

– لا يمكن أن تجد هذا السعر في أي مكان آخر يا سيدي.

نطقها بابتسامة عريضة مرصَّعة بأسنان جيريَّة بديعة فاتَّقدت بداخلي نار الغيظ، فبالإضافة إلى أن سعر الذهب موحَّد في جميع الأماكن فقد قضم ذلك الذئب المستفز قضمة هائلة من قطعة اللحم تجاوزت ال٩٩٪، لم يكتفِ بذلك وسكب البنزين على النار المتَّقدة بداخلي قائلًا:

– أعلم أن السعر لا يناسب مقامك يا سيدي، فإذا أردت أن تدفع أكثر فليس لدينا أي مانع

لن أستطيع وصف مزحته بأنها سخيفة، كما لن أستطيع وصف حالتي في تلك اللحظة، كل ما أستطيع قوله أن منظره كان يدعوني بشدة إلى تعلُّم الملاكمة من أجل لكمه حتى الموت.

فتحت الحقيبة ناظرًا إلى الذئب المستفز تكاد عيناي تبصقان في وجهه نار الغيظ التي زادت عن حدها بداخلي، وفي تلك اللحظة عوى الذئب البشع عُواءً مُريعًا فصرخ بشدة:

- أووووو

كان ينظر إلى الحقيبة مذهولًا، فأصابني الرعب ونظرتُ مسرعًا إلى الحقيبة لكي تنفجر في وجهي...

لم تكن هناك قنبلة داخل الحقيبة، ولكن المفاجأة المدوِّية هي التي انفجرت في وجهي حين رأيتُ ما لم أكن أتخيل أن أراه...

الحقيبة كانت محشوَّة بالورق الأبيض!

***

كنت أظن أن مارجريت قد اختتمت انفجارات تلك الليلة عندما صرخت في وجهي عند الباب، لم أكن أعلم أن هناك انفجارًا أخيرًا ينتظرني، انفجار ليس كتلك الانفجارات التافهة التي سبقته والتي كانت بالنسبة له مثل مفرقعات رأس السنة..

الرجل اللطيف الذي أعاد إليَّ الحقيبة لم يكن رجلًا لطيفًا، وإنما كان رئيس عصابة مكونة من ثلاثة أشخاص!

الخُطّة: يقوم اللص رئيس العصابة المحترف بسرقة كل اهتمامي، فيصبح اهتمامي مُنصَبًّا عليه وحده، بأن يوهمني أنه سوف يسرق مني الحقيبة في أي لحظة، وفي لحظة غفلة يقوم الرجلان بخطف الحقيبة مني فينطلق ورائهما رئيسهما اللص.

لتدور بينه وبينهما مشاجرة وهمية يربحها الرجلان بالاتفاق فيكافئهما رئيسهما بمكافأتي السنوية فيتركهما يهربان بها، ثم يعود هو إليَّ بحقيبة مزيَّفة تمَّ حشوها بورق أبيض

فائدة الخُطّة: بدون تلك الخُطّة كنتُ سأطارد أفراد العصابة للنهاية، ولكن حينما تعود إليَّ الحقيبة المزيَّفة التي أظنها حقيبتي أتوقف تمامًا عن المطاردة، وحين أكتشف الخديعة يكون اللصوص في مكانٍ ما يقتسمون الغنيمة.

- إني أحذرك، إذا لم تتعلم لغة الجسد سوف تدفع الثمن.

تلك الجملة قالها لي ماركوس يومًا ما، رددتُ عليه ساخرًا وقلت:

- ذلك الثمن الذي سوف أدفعه كم باوند بالتحديد يا ماركوس؟

في تلك الليلة عرفتُ كم باوند بالتحديد، إنها عشرة آلاف باوند فقط.

تذكرتُ نظرة الحمل الوديع حينما أردتُ أن أكافئه فرفض، وقال بلطفٍ زائف:

"أرجوك لا تفعل" لو استمعتُ لنصيحة ماركوس وتعلمتُ لغة الجسد لترجمتُ نظرته بسهولة.

لقد كانت نظرته معناها:

إني لستُ في حاجة إلى مكافأتك الحقيرة أيها العبيط، فقد كافأتُ نفسي بالنيابة عنك بمكافأتك السنوية كلها..

وقفت أمام الباب مرعوبًا كطفلٍ صغير أضاع حقيبة أُمِّه، كنت على يقينٍ من أن أمِّي الحنون مارجريتً سوف تُربِّيني في تلك الليلة من جديدٍ.. سوف تُربِّيني لأنني أسأت التصرف وأضعتُ الحقيبة، الحقيبة التي بدونها لن يكون هناك أي هدايا..

كنت أسمع دقَّات قلبي أو هكذا كنت أظنُّ فأفقتُ من شرودي

محدِّثًا نفسي:

هل ما كنت أسمعه منذ قليل دقَّات قلبي أم كانت دقَّات قدميها تقترب من الباب؟ هل هي الآن تقف خلف الباب؟

حاولتُ وضع تكتيك مناسب يمكِّنني من الخروج بأقل الخسائر من ساحة المعركة إذا كانت موجودة بالداخل فلم أجد إلا التكتيك المعتاد، تكتيك "الاستسلام".

الشقة كانت غارقة في ظلام دامس عندما فتحتُ الباب فتأمَّلتُ أن تكون قد نامت بعدما قامتً بإطفاء الأنوار، ولكن ما إن وضعتُ أصبعي على زرِّ الإضاءة حتى ظهرت أمامي فجأة فأفزعتني لدرجة أنني تعثرتُ فارتطم رأسي بالأرض، وفي تلك اللحظة الفارقة قرَّرتُ تغيير تكتيك "الاستسلام" إلى تكتيك آخر يسمي تكتيك "تصنُّع الموت" والذي اشتُهِر به حيوان يسمَّى "أبو سوم فيرجينيا الأمريكي" والذي ما إن يقترب منه عدوٌّ لافتراسه حتى يقوم على الفور بتطبيق التكتيك العجيب، فيتصنَّع الموت مخرجًا أمعاءه ذات الرائحة الكريهة فيظن العدوّ المفترس أنه حيوان نافق منذ مدَّة لا يصلح للأكل فيتركه ويمضي..

المدهش أن التكتيك المأخوذ عن العبقري "أبو سوم" قد نجح بشدة على الأقل في البداية وصدَّقت مارجريت أنني قد أُغمى عليَّ بالفعل، والمدهش كذلك أن التكتيك طُبِّق بحذافيره عندما طارت الحقيبة

المحشوَّة بالورق الأبيض ووقعت بجواري ففُتِحت وخرجت أمعاؤها كريهة الرائحة جدًا بالنسبة لمارجريت، فهي ومن أول نظرة بالطبع قد قرأت عبارة واضحة جدًا مكتوبة في كل ورقة بيضاء:

"زوجكِ العزيز قد ضُرب على قفاه ونُصب عليه هذه الليلة".

لم تعلم زوجتي العزيزة أنها قد أهدتني هدية ثمينة عندما أرادت مداعبتي بالظهور أمامي فجأة، طبعًا هي قد رأتني مِن الشرفة حينما دخلتُ من البوابة فأسرعَت بإطفاء أنوار الشقة واختبأت خلف الباب وبدلًا من أن تأخذ مني هدية أهدتني هي هدية..

ظلَّت زوجتي الساذجة بجواري تحاول إفاقتي من الإغماء المزيَّف بدون جدوى.

في الحقيقة لم تكن إفاقة بالمعنى الحرفي، كان لكزًا أقرب منه إلى الإفاقة، كانت تلكزني في صدري بغيظ بعدما أيقنت أنني تسببتُ في ضياع هديتها الثمينة، بعد ذلك بدأت ترش وجهي بالماء بغِلّ وطبعًا واصلتُ تمثيل دور "أبو سوم فرجينيا" ببراعة لكنَّ الشك قد ساورها بمرور الوقت، فقررت قطع الشك باليقين فقامت

فجأة وهي تقول:

– أنا أعرف ما الذي سيجعلك تفيق.

تقافزت جميع السيناريوهات المجنونة أمامي حين أتاني صوتها من داخل المطبخ يبشرني بسلخ جلدي إذ سمعتها تقول:

- الماء الساخن سوف يجعلك تفيق

في تلك اللحظة تقافزتُ كالضفدع باتجاه غرفة النوم، ثم قفزت على السرير قفزة هائلة فسمعتُ ضحكاتها المكتومة فعلمتُ أنها ولأول مرة في حياتها قرَّرت منحي هُدنة على أن تستأنف النَّكد في الصباح الباكر...

استيقظتُ في الثامنة صباحًا أو بمعنى أصح هي التي أيقظتني مع سبق الإصرار والترصُّد إذ تعمدت تعليق لوحة على حائط غرفة النوم في ذلك التوقيت غير المبكر أبدًا والمناسب جدًا.

قلت في نفسي: ألا تعلمين يا زوجتي الحمقاء أن الذي استطاع تمثيل دور "أبو سوم" الميت ببراعة يستطيع بكل سهولة تمثيل دور "أبو سوم" النائم؟

كنتُ على يقينٍ من أنها تقول في نفسها:

إلى متى ستظل نائمًا يا زوجي العزيز؟

كانت الإجابة أبسط مما تتخيَّل حين أجبتها في نفسي قائلًا: إلى حين مجيء الفرج يا زوجتي العزيزة، كان الفرج أسرع مما أتخيل حين رنَّ جرس الهاتف فتركت المجرمة أداة الجريمة التي طعنت بها الحائط

المسكين أكثر من مئة طعنة نافذة، واتجهت نحو الهاتف المتواجد بالصالة لكي تتلقَّي مكالمة هاتفية من أنثى أشد إجرامًا منها تُدعى بوبي، كانت بوبي الثرثارة صديقة

مارجريت الوحيدة تشحذ لسانها في الدقيقة الواحدة بخمسمائة كلمة على أقل تقدير، كانت تلك بالطبع هي اللحظة الأنسب للفرار.

فبوبي مشكورة لم تكن لتترك أُذُني مارجريت قبل ساعة على الأقل..

خرجتُ إلى الصالة متجهًا إلى الحمَّام ناظرًا إليها نظرة معناها:

"أحيانًا تأتي الرياح بما تشتهي السفن"

ردَّت عليَّ بنظرة معناها:

"بيدي لا بيد بوبي".

كانت تقصد أن بيدها في أي لحظة وضع السماعة وإغلاق الخط ولن تستطيع بوبي ولا أُم بوبي منعها، بلعتُ ريقي بعد استقبال رسالتها شديدة اللهجة وواصلتُ طريقي إلى الحمَّام متعلِّقًا لا بالأمل وإنما بأحبال بوبي الصوتية التي هي أشد متانة بكثير من الأمل..

أنهيتُ حمَّامي في دقيقتين حرفيًا وخرجتُ متجهًا إلى غرفة النوم بسرعة جنونية ناويًا ارتداء ملابسي في دقيقة واحدة حين نظرت إليَّ نظرة معناها:

"سوف أقطع الاتصال الآن، وفِّر مجهودك يا عزيزي"

لم أعبأ بذلك التهديد قائلًا في نفسي:

"عليكِ أولًا يا عزيزتي أن تقطعي أحبال بوبي الصوتية التي هي أشد متانة من الأحبال الفولاذية"

كنت متعلِّقًا بأحبال بوبي التي لو قُطعت سوف أسقط في محيط النكد غير الهادئ وكان ذلك أسوأ بكثير من السقوط في المحيط الهادئ..

وقفتُ أمام باب غرفة النوم مُتهيئًا للخروج بعدما وفَّرت نصف دقيقة كاملة، فارتديتُ ملابسي في نصف دقيقة بدلًا من دقيقة، فتحتُ الباب فوجدتها أمامي تبتسم ابتسامة تَشَفِّي معناها:

"سوف أُشَفِّي لحمك الآن يا زوجي العزيز"

كانت مندهشة من نظرة الثقة التي تراها في عيني، زوجتي العزيزة لم تكن تعلم عن صديقتها بوبي الذي أعلمه أنا، كنت أعلم جيدًا أن بوبي لن تتنازل عن لحظة واحدة من الساعة الصباحية التي تشحذ بها لسانها على الرِّيق كل صباح، رنَّ جرس الهاتف مرةً أخرى كما توقَّعت لكن الذي لم أتوقَّعه أن مارجريت سوف تقرِّر عدم الرد على الهاتف وستقف في مكانها تنظر إليَّ نظرة معناها:

"لا مفرَّ من العقاب يا زوجي العزيز"

بدأتُ خلع ملابسي فلم يعد لديها أدنى شك في أنني قرَّرت عدم الذَّهاب إلى العمل رافعًا الراية البيضاء، وأنني سوف أتفرَّغ لسماع درس النَّكد الذي كان طبعًا بعنوان: "أين هديتي التي وعدتني بها"

ذهبت مسرعة للرد على الهاتف، ثم عادت بعد أقل من دقيقة وفتحت باب غرفة النوم فسمِعَت في اللحظة نفسها صوت باب الشقة وهو يُغلَق وكنتُ أنا من أغلق الباب..

لقد قرَّرت تطبيق تكتيك "الثعلب" في اللحظة نفسها التي قرَّرت هي فيها عدم الرد على الهاتف، فتظاهرتُ بخلع ملابسي ورفع الراية البيضاء فذهبَت بكل سذاجة للرد على الهاتف، فارتديتُ ملابسي مرةً أخرى وتسحَّبتُ من ورائها كالثعلب ناظرًا إليها نظرة معناها:

"هذا جزاء كل من يصاحب امرأة موهوبة في الثرثرة"

- هل ستظل في مكانك هكذا تتلفَّت كالثعلب؟

زأر بها الأسد ماركوس وهو ينظر إليَّ من النافذة نظرته الرهيبة، فحدَّثتُ نفسي قائلًا: هل ما زلتُ أمثل دور الثعلب إلى الآن؟!

فتحتُ باب المكتب فوجدته يصرخ قائلًا:

- لماذا تأخرتَ هكذا؟

- هل تأخرت؟! أعتذرُ بشدة إذا كنتُ قد تأخرت

قالها الرجل الجالس على الكرسي مرتعدًا وهو ينظر إلى ساعة الحائط، والتي كانت تشير إلى التاسعة وخمس دقائق ما يعني أنه تأخر فقط خمس دقائق.

كنت أود أن أقول للرجل المسكين: لا تتعجَّب فهذه الخمس دقائق بالنسبة لهذا الكائن الفضائي خمس دقائق ضوئية.

– لقد كنت قريبًا جدًا من السيد ويليام سميث، فما الذي تعرفه عنه؟

سأل ماركوس الرجل محدِّقًا في وجهه، فقال الرجل مفزوعًا:

– لا يا سيدي، ليس صحيحًا لم أكن قريبًا منه.

نظر ماركوس متعجبًا في الورق الذي أمامه، وقال بعبوس يُحسَد عليه:

– مكتوبٌ أمامي أنك من جيران السيد ويليام المقرَّبين.

– عفوًا يا سيدي، لقد حسبتك تقصد أنني من أقرباء السيد ويليام، لم أكن أعلم يا سيدي أنك تقصد...

أوقفته نظرة ماركوس التي توقِفُ تنِّينًا فابتلع ما تبقَّى من الجملة مع الريق الذي ابتلعه بشدة، ثم نظر إلى الأرض نظرة غريبة. كان التحليل المبدئي لشخصية الرجل يشير إلى أنه إما من الأغبياء المعدودين، وإما من أولئك الأشخاص المصابين بفوبيا المحقِّقين الذين ينتابهم الرعب

الشديد إذا رأوا محقِّقًا فضلًا عن أن يقوم ذلك المحقِّق بالتحقيق معهم، فضلًا عن أن يكون ذلك المحقِّق هو ماركوس شخصيًا.

بدأت كلاب ماركوس البوليسية التي تمتلئ بها جمجمته تنبح على الرجل، فنظر إليه بشكوك لا حصر لها قائلًا:

- ما الذي يجعلك مرعوبًا ومرتبكًا إلى هذا الحد؟

أصيب الرجل بحالة من الهلع بعدما نبحت عليه كلاب ماركوس، فاتجهتُ نحو ماركوس وقلت:

- ماركوس، الرجل سوف يبكي.

قلتها بصوت منخفض فردَّ بصوتٍ منخفضٍ أيضًا وقال:

- إذًا اذهب فأرضعه حتى لا يبكي.

كزَّ على أسنانه بشدة وهو ينظر نحوي قائلًا:

- جون أنا لست أُمًّا حنونًا مثلك، أنا محقِّق

انسحبت بهدوء كثعلب ذكي وجلستُ مرةً أخرى أمام مكتبي حين قام وضرب على مكتبه بشدة قائلًا:

- الآن سوف تخبرني بكل شيء.

انتفض الرجل مذعورًا وقال:

- بماذا أخبرك بالضبط يا سيدي؟

زفر ماركوس وصرخ في وجهه بشدة قائلًا:

- هل سنظل نتحدث حول هذا الأمر طيلة اليوم؟

أخبرني حالًا بكل شيء تعرفه عن السيد ويليام

نظر له الرجل نظرة غريبة، وقال كلامًا أغرب:

- سيدي، أنا لا أستطيع الإجابة إلا على أسئلة محدَّدة.

ظننتُ أن ماركوس سوف يقفز في وجهه بحركة من حركات الكونغ فو التي يجيدها، لكنه فعل ما هو أسوأ من ذلك بكثير حيث قام متجهًا نحوه، ثم اقترب بوجهه منه حتى لامس أنفه المعقوف البشع أنف الرجل وبهدوءٍ رهيب أرهب الرجل قال:

- هل تمزح معي؟

كنت أفضل أن أُركل حتى الموت على أن يقترب وجه أسد من وجهي إلى تلك الدرجة، أظن أن الرجل كان يفضل ذلك أيضًا.

- سيدي، أنا لا أمزح.

قالها الرجل وهو على وشك البكاء فعليًا، فتركه ماركوس وقام متجهًا ناحية مكتبه وكاد يكسر ضرسًا من أضراسه وهو يكزّ على أسنانه بشدة سائلًا الرجل سؤالًا محدَّدًا كما طلب سيادته:

– هل كان السيد ويليام سميث رجلًا عدائيًا؟

قال الرجل بذكاء يُحسد عليه:

– هل تقصد يا سيدي، هل كان له أعداء أم لا؟

قال ماركوس محدقًا في وجهه:

– ألا تعلم معنى كلمة عدائيّ؟

احمرَّ وجه الرجل بشدة بعد تلك الصفعة من ماركوس، ونظر إليَّ لكي يعلم هل أبتسم أم لا فوجدني قد أنهيت مراسم دفن الابتسامة في الأرض، ثم رفعت رأسي ناظرًا إليه لتتلاقى عينانا للمرة الأولى.

– هل كان للسيد ويليام أي أعداء؟

قالها ماركوس مغتاظًا بعدما اضطر للنزول إلى مستوى ذكاء الرجل، والذي كان موجودًا عند أعمق نقطة في الكرة الأرضية والمسماة نقطة "تشالنجر" الموجودة في خندق ماريانا بالمحيط الهادئ.

تفكَّر الرجل ناظرًا إلى الأرض، ثم رفع رأسه بعينين مندهشتين كأنه استخرج لؤلؤة من قاع المحيط الهادئ، وقال:

– لقد كانوا أربعة أعداء.

قال ماركوس باهتمام:

- هل تعرف أوصافهم؟

قال بلا مبالاة:

- لا يا سيدي، لا أعرف أوصافهم.

- هل تعرف اسم واحد منهم؟

- لا يا سيدي، لا أعرف اسم واحد منهم.

بدون أن يتكلم قام ماركوس ضاربًا بيده على المكتب ضربة شديدة جعلت الرجل يقفز في مكانه..

تركني ماركوس مع الرجل وخرج، فرأيت أن الفرصة سانحة حتى أبرز موهبتي مرة أخرى كما فعلت من قبل مع الحوت الأزرق المسمَّى أوليـڤر الذي لولا موهبتي في استجواب ذلك النوع من الحيتان لجعل أيامنا ولياليا كلها زرقاء، كان السيد أوليـڤر هو أغنى رجل في إنجلترا وكان الكائن الجالس أمامي على الكرسي على حد علمي هو أغبى رجل في إنجلترا، فقلت في نفسي مبتسمًا:

سوف يكون لي الشرف يا ماركوس أن أتفوق عليك في استجواب الرجل الأغنى والرجل الأغبى.

كان عليَّ أن أخترع فكرة ذكية تجعل الحمار الجالس على الكرسي يتجاوب معي؛ حتى أستخرج منه ما أريد من معلومات وفي تلك

اللحظة جاءتني فكرة عبقرية جدًا تتلخَّص في طرح أسئلة غبية على الرجل بدلًا من الأسئلة العادية.

كنتُ أراهن على أن ذلك الغبي سوف يفهم الأسئلة الغبية، كما أن الشخص صاحب المستوى العادي من الذكاء يفهم الأسئلة العادية، سألته سؤالًا غبيًا فقلتُ:

– لقد قلت منذ قليل أن السيد ويليام كان له أربعة أعداء، فهل قلت ذلك؟

كان سؤالًا غبيًا بالطبع، فكيف أجزم بأنه قال ثم أسأله هل قال أم لا؟! المدهش أن الفكرة نجحت نجاحًا مذهلًا، فلم يُبدِ الرجل الغبي أدنى اندهاش من سؤالي الغبي، وأجاب بنعم بإيماءة من رأسه ناظرًا إليَّ نظرة معناها:

أخيرًا وجدتُ من يسألني الأسئلة الغبية التي أفهمها.

كان عليَّ تكثيف جرعة الغباء في السؤال الذي يليه، فقلت:

– لقد قلت إنك لا تعرف من أسماء أولئك الأعداء اسمًا واحدًا، فما هو ذلك الاسم الواحد؟

كدتُ أموت من شدة الذهول عندما تجاوب الرجل مع سؤالي قائلًا:

– ذلك الرجل بالتحديد يا سيدي كنت أسمع السيد ويليام يناديه

باسمه كثيرًا، إنه يدعى السيد أولـ...

انقطع الرجل عن الكلام عندما دخل ماركوس فجأة، فتوجهت نحو الأخير مغتاظًا مصوِّبًا لساني نحوه بست طلقات نارية عبارة عن ست كلمات فقلت:

– كان عليك أن تتأخر بضع لحظات.

ردَّ عليَّ بطلقتين ناريتين من عينيه البديعتين فاضطررت لاتخاذ قرار وقف إطلاق النار، فقلت متلطِّفا:

– لو تأخرت بضع لحظات لنطق الرجل اسم رجل من أعداء السيد ويليام، قال باهتمام:

– وكيف ذلك؟

– لقد اخترعتُ فكرة ذكية جدًا جعلت الرجل يتجاوب معي بشدة، أخفى لهفته حين سألني:

– وما هذه الفكرة؟

قلت بكل فخر:

– فكرتي الذكية هي أن أكون غبيًا

نظر إليَّ نظرة حادة قائلًا:

- ماذا تقول؟ هل تمزح؟

- بالطبع لا أمزح يا ماركوس، لقد تقمصت شخصية رجل غبي وطرحت أسئلة غبية على هذا الغبي، وقد نجحت الفكرة بالفعل دعني فقط أكمل فكرتي وانظر بنفسك. بدا متأفِّفًا من رائحة الغباء التي تفوح من فكرتي الذكية، فقلت بثقة:

- تستطيع أن تصفني بأنني حمار إذا فشلتُ

انبعج وجهه تعجبًا مما قلت ولم ينطق بكلمة، فقط نظر إليَّ نظرة معناها: أرني عبقريتك، توجهت نحو كومة الغباء المكومة على الكرسي، ثم قلت بعدما جذبتُ كرسيًا وجلست بجواره:

- أخبرتني منذ قليل بأنك تعرف اسم رجل من أعداء السيد ويليام، نظر إليَّ متعجبًا وقال:

- أنا يا سيدي؟

لقد نسى المتخلف عقليًا!

كان ماركوس يقف خلفي فأحسستُ بنظراته تكوي ظهري، اقتربت بوجهي من وجه ألطف الكائنات وقلتُ متلطفًا:

- لقد ذكرت لي أول ثلاثة أحرف من اسمه ألا تذكر ذلك؟

نظر إليَّ المتخلف نظرة تعجب أخرى قائلًا:

– ولماذا لا أذكر الاسم بالكامل يا سيدي؟

أيها الحمار البالغ سوف أحوّلك إلى جحش صغير إذا لم تنطق، قلتها في نفسي حين نطق فجأة قائلًا:

– لقد تذكرت يا سيدي.

لم أصدق حين نطق بها، وقلت مسرعًا قبل أن ينسى مرة أخرى:

– ما اسم ذلك الرجل؟ أخبرني به حالًا.

حدَّق في وجهي طويلًا ثم قال:

– السيد أوليـڤر.

كانت الدهشة لا تسعها عيوننا المتَّسعة عن آخرها.. لقد كان السيد أوليـڤر أعز أصدقاء السيد ويليام وقد استمرت العلاقة الوطيدة بينهما حتى آخر أيام السيد ويليام، كما ثبت ذلك من التحريات الدقيقة.

قلتُ له بذهول:

– هل أنت متأكد مما تقول؟

قال بشرود:

– لقد كان هو وثلاثة أعداء آخرين.

واصل بالشرود نفسه:

– لقد كانوا يجتمعون عند السيد ويليام ويتشاجرون معه دائمًا، وكانوا...

انقطع عن الكلام، فقلت متلهفًا:

– كانوا ماذا؟

صمت قليلًا، ثم ألقاها كالقنبلة:

– كانوا يهددونه بالقتل.

مرَّ وقتٌ قصيرٌ طويل خيَّم فيه الذهول التام وساد الصمت المُطبِق الذي لم يلبث أن قطعه الرجل بصوتٍ مرتفع قائلًا:

– لا أدري يا سيدي كيف يفعلون كل ذلك من أجل لُعبة، تمنيت أن تكون أذني قد خانتني فلم أسمعه جيدًا، قلت له وأنا أبتلع ريقي:

– هل قلت لُعبة؟

أكدها المتخلف اللعين قائلًا:

– نعم يا سيدي، فقد كانوا يجتمعون عند السيد ويليام من أجل أن يلعبوا معه هذه اللعبة الحقيرة.

نظر إليَّ الأسد ماركوس نظرة معناها:

إذا اتَّضح الآن أن كل ذلك كان مجرد اجتماع معتاد لمجموعة من

الأصدقاء الأغنياء يلعبون معًا لعبة ما ويمزحون معًا بألفاظ السِّباب والتهديد فسوف آكلكما معًا أيها الحماران، مبتلعًا ريقي بدأت أفكر في كيفية إبطال مفعول القنبلة الغبية الجالسة على الكرسي قبل أن تنفجر في وجهي، كان ذلك الغبي المتخلف بمنزلة قنبلة من القنابل الغبية التي تستخدم في الحروب (٤) والتي قمتُ بمحاولة أخيرة لإبطال مفعولها فجثوتُ على ركبتيَّ وكدتُ أقبِّل قدميه حتى يجيب الإجابة التي دسستها له داخل السؤال قائلًا:

– لقد كنتَ تقصد باللُّعبة الحقيرة التي كان يلعبها أولئك الأعداء مع السيد ويليام لُعبة "التهديد بالقتل" أليس كذلك؟

صرخ المتخلف عقليًّا كما لم يصرخ من قبل قائلًا:

– لا يا سيدي، إنها لُعبة البوكر.

انفجرت القنبلة الغبية في وجهي بطعم الرَّذاذ المتطاير من فم الغبي اللعين، فأغمضتُ عينيَّ وأحسستُ أنني سأحلِّق في سماء الغرفة من شدة الغيظ حين قام الأسد ماركوس من مكانه من أجل أن يأكل الحمارين اللذين تجرَّءا وقرَّرا بغبائهما اللعب أمام العرين طيلة تلك المدة، لكنه رأى أن حمارين بذلك الغباء لا يستحقَّان أن يؤكَلا فاكتفى

٤ سميت القنابل الغبية بهذا الاسم لأنها تدمِّر بطريقة عشوائية وهي نقيض القنابل الذكية التي توجَّه نحو الهدف.

مشكورًا بطردنا من الغرفة شر طردة، قائلًا لي عند الباب:

- لا أريد أن أرى وجهك طيلة اليوم، سوف أقوم بجميع الاستجوابات وحدي.

لم ينسَ عبارتي اللعينة: "تستطيع أن تصفني بأنني حمار إذا فشلت" وقبل أن يغلق الباب نظر إليَّ نظرة لن أنساها طيلة عمري، نظرة معناها:

أنت حمار يا جون.

***

كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا خمس دقائق حين وقفتُ أمام باب الشقة متذكرًا مقولة فيثاغورث الشهيرة: "لا تجادل الأحمق فقد يخطئ الناس في التفريق بينكما" لقد خانتني ذاكرتي في الصباح خيانة عظمى، فلم أتذكر تلك المقولة المفيدة التي بالتأكيد لو تذكرتها ما تكلمتُ مع ذلك الحمار المتحوِّل الذي لو رآه داروين لما خرج علينا بنظريته القائلة: إن الإنسان أصله قرد، ولخرج علينا بنظرية داروينية مختلفة تمامًا، تقول: إن الإنسان أصله حمار..

أشارت الساعة إلى الثامنة إلا نصف دقيقة، الشيء الذي كان يعني أنه بقي فقط نصف دقيقة ويحين موعد الدخول المقدَّس الذي لو تأخرتُ عنه لحظة واحدة فأنا متَّهم بالخيانة الزوجية، خلال نصف دقيقة كان عليَّ أن أبحث عن حيوان مناسب يصلح لأن أتحوَّل إليه حتى أستطيع الهروب من حصَّة النَّكد التي بعنوان: "أين هديتي" للأسف مادة النَّكد من المواد المقرَّرة إجباريًا على كل زوج داخل مدرسة الزوجية، لقد استطعت الهروب من تلك الحصة مرتين متتاليتين: الأولى عندما تحولتُ إلى أبو سوم فرجينيا في المساء، والثانية عندما تحولت إلى ثعلب مكار في الصباح..

دقَّت الثامنة ولم أستطع التحول إلى أي حيوان يستطيع الوقوف في

وجه الغزالة مسنونة اللسان التي بالداخل، فبدأ قلبي المرتعد يدق بشدة طبول الحرب التي سأخسرها بعد قليل ودخلتُ رافعًا الراية البيضاء، لكني وجدتُ أمامي مفاجأة من العيار الخفيف على قلبي جعلتني أُنكِّس الراية البيضاء وأرفع بدلًا منها ابتسامة بيضاء قائلًا:

- بوبي، هل أنتِ هنا؟

بدلًا من أن يكون الرَّد ثلاث كلمات على الأكثر

ردَّت قائلةً:

- أهلاً بك يا عزيزي جون ، هل حضرت؟ أهلاً بك ، لم أرك منذ مدة طويلة جداً جداً ، منذ مدة طويلة جداً جداً لم نتقابل في أى مكان ، إنى متواجدة هنا منذ ساعات عديدة جداً جداً ، منذ تسع ساعات على الأقل ، تسع ساعات كاملة أليس كذلك يا عزيزتى العزيزة مارجريت؟

قالتها ناظرةً إلى مارجريت فأردت أن أسألها عن "عزيزتي العزيزة" لماذا ليست عزيزة واحدة لكنها لم تمهلني وواصلت قائلةً:

- لماذا تأخرت هكذا يا عزيزي؟ لماذا تأخرت هكذا؟ كنت أود أن أجلس معك أطول مدّة ممكنة، لكني أعذرك بشدة يا عزيزي جون، أعذرك بشدة، العمل كمحقِّق ليس كأيّ عمل آخر، على كل حال إني سعيدة جدًا جدًا لأنني رأيتك، لن تستطيع أن تتخيل يا عزيزي جون كم أنا سعيدة جدًا جدًا لأنني رأيتك.

لن تستطيعي أن تتخيلي يا عزيزتي بوبي كم أنا سعيد جدًا جدًا لأنني رأيتكِ في هذه الليلة بالتحديد. قلت ذلك في نفسي ناويًا استغلال تلك الثرثارة المُستَثارة أحسن استغلال لصالحي، كانت بوبي الثرثارة المُستَثارة تستثيرها أي كلمة تُقال فتسارع على الفور بجعل تلك الكلمة عنوانًا لرواية من رواياتها الطويلة ذات الحبكات المميَّزة، وفي بعض الأحيان إذا لم يتسع الوقت تجعل تلك الكلمة عنوانًا لقصة قصيرة وطبعًا قصص بوبي القصيرة تكون أطول بكثير من الروايات الطويلة لأي امرأة أخرى.

– بوبي سوف تتأخرين على توماس.

قالتها مارجريت التي تتآكل من الغيظ بعدما أحسَّت أنني أريد استغلال صديقتها الثرثارة من أجل الهروب منها للمرة الثالثة على التوالي.

بدأت بوبي في سرد قصة قصيرة بعنوان: "زوجي توماس" فور سماعها كلمة توماس التي استثارتها كالعادة، فقالت:

– لا أدري لماذا يضغط عليَّ توماس بهذه الطريقة البشعة، لماذا يريدني دائمًا في المنزل، لماذا لا يتركني أذهب إلى صديقاتي إلا مرة أو مرتين فقط في الشهر، توماس حتى لا يخرج معي للتنزُّه كل يوم أحد مثلما يفعل الجميع في لندن، توماس لا يمتلك صفة سيئة إلا هذه الصفة، توماس

شخص جيد جدًا، توماس كريم جدًا جدًا، لا يحرمني من أي شيء إطلاقا مُطلقًا، توماس حنون إلى أبعد الحدود، إلى أبعد الحدود، توماس يغار عليَّ إلى درجة الجنون، إنه شخص مذهل، شخص مذهل، ليس به صفة سيئة إلا هذه الصفة، إنه يكره الخروج بشكل مفزع يحب البيت بشكل مقزز، إني لم أعد أتحمَّل، لم أعد أتحمَّل، لم أعد أتحمَّل.

قلت في نفسي: لا أعلم كيف استطاع توماس أن يتحمَّلكِ طيلة تسع سنين من الزواج، لا أستبعد أن يتحول في القريب العاجل إلى يربوع طويل الأُذُن بسبب هذه الثرثرة التي تتعرَّض لها أذنه كل يوم.

حقيقة علمية: اليربوع طويل الأذن يبلغ طول أذنه ثلثي طول جسمه!

بعدما سردت بوبي تلك القصة القصيرة ارتعدت فرائص مارجريت وأيقنت بخبرة سبع سنين زواج أن زوجها الثعلب جون يفكر جديًّا في كلمة تصلح عنوانًا لرواية طويلة والتي قد تستغرق الليل كله حرفيًّا، فقامت ممسكةً بيد الروائية العظيمة بوبي وهي تقول:

- لا عليكِ يا عزيزتي، سوف نواصل الحديث في هذا الأمر لاحقًا عبر الهاتف.

كانتا عند الباب في لحظات الوداع الأخيرة عندما رفعت مارجريت صوتها قائلةً:

– لا عليكِ يا بوبي، سوف أخبركِ عبر الهاتف كيف تلقِّنينه درسًا لا ينساه.

قالتها ناظرةً إليَّ حين لم تبقَ إلا لحظة وداع واحدة وبعدها سأودِّع الحياة المريحة طوال الليل

– بوبي.

صرختُ مستغيثًا في آخر لحظة، فأطلَّت برأسها آملةً أن تكون هناك أيُّ كلمة تصلح أن تكون عنوانًا لرواية، أو لقصة قصيرة، أو حتى لأقصوصة فجذبتها من لسانها قائلًا:

– بالطبع قد سمعتِ عن الجريمة الشنعاء التي..

قاطعتني زاحفةً نحوي كـ"سحلية سريعة" بعدما أزاحت مارجريت من طريقها قائلةً:

– بالطبع يا جون، بالطبع قد سمعتُ عنها، وهل يُعقل أنني لم أسمع عنها؟

هل هناك أحد في إنجلترا كلها لم يسمع عنها؟ إني أتابع تفاصيلها ساعة بساعة، بل دقيقة بدقيقة، بل لحظة بلحظة

أتمنَّى أن تمسكوا بهذا المجرم فى أقرب وقت ممكن ، أتمنى أن تمسكوا بهذا المجرم الفظيع الشنيع المريع ، أتمنى أن تمسكوا به وتعلِّقوه من رقبته

لا، لا، بل أتمنى أن تمسكوا به وتطعنوه ثمان وتسعين طعنة في رقبته، لا، لا بل أتمنى أن تمسكوا به وتطعنوه ثمان وتسعين طعنة نافذة في قلبه. أتمنى أن يطعنكِ ولو طعنة واحدة نافذة في حلقكِ، قلتها في نفسي حين صرخت مارجريت من عند الباب بعد فوات الأوان:

– بوبيييي.

ردَّت بوبي قائلةً:

– مارجريت، انضمِّي إلينا حتى أروي لكما عن هذه الجريمة ما لا يعرفه زوجكِ المحقِّق شخصيًا.

جاءت مارجريت تتكتك من شدة الغيظ وقبل أن تفتح بوبي فمها اللَّعين قلت لها:

– أرجو أن تعذريني يا عزيزتي بوبي، فقد جئتُ من العمل مُجهَدًا جدًا، أرجو أن تشرحي لمارجريت كل ما تعرفينه بالتفصيل الممِلّ.

كانت مارجريت على وشك البكاء حينما انصرفتُ مبتسمًا باتجاه غرفة النوم تاركًا إياها مع بوبي أمُّ أربعٍ وأربعين لسان، التي ستنتقم لي منها ومن لسانها..

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحًا عندما وقفتُ في الصالة أُلقي نظرة الوداع على جثمان زوجتي الفقيدة الملقي على الكرسي، وأنا

في حالة يرثي لها من الضحك الشديد.

ملخص التقرير الجنائي للجريمة:

• نوع الجريمة: قتل هستيري.

• أداة الجريمة: رواية بوليسية مثيرة.

• الجاني: السفاحة الشهيرة بوبي أمُّ أربعٍ وأربعين.

• المجني عليه: امرأة تُدعى مارجريت مطعونة في أذنيها بعدد من الكلمات يقترب من المالانهاية.

وقفتُ أمام باب المكتب متأخرًا كالعادة حين فتح ماركوس الباب فجأة قائلًا:

– وزير الداخلية فقط هو من يتأخر ساعتين كاملتين، أرى أنك تستحق هذا المنصب يا سيادة المحقِّق جون.

أزحته بصعوبة بمساعدة نحنحة وبلعة ريق وابتسامة صفراء ودخلتُ قائلًا:

– أشكرك بشدة يا عزيزي ماركوس، مع أنك قد بخستني حقي، فرئيس الوزراء هو من يستطيع التأخُّر ساعتين كاملتين وليس وزير الداخلية.

كاد يقطع لسانه من شدة الغيظ في اللحظة نفسها التي أعلن فيها

لسان ساعة البندول المعلَّقة على الحائط حلول الحادية عشرة، اللسان المستفز كان بمنزلة شاهد إثبات يعلن تأييده اتهام ماركوس لي بجريمة التأخُّر، نظرتُ إلى اللسان المتدلِّي مغتاظًا فتخيلتُ لسان بوبي مكانه يقول لي:

– أنت مهمل ومتراخ ومفرِّط ومقصِّر ومتكاسل وكسلان وكسول وغير مكترث وغير مُبالٍ وغير مُهتَمّ، وليس لديك أدنى اهتمام ونزق ومتهاون ومتوانٍ وغير مسؤول ولا تشعر بالمسؤولية ولديك الكثير من الإغفال و... ومُغفَّل أيضًا

الكلمة الأخيرة فقط هي التي أغاظتني لأنها ليست من مرادفات كلمة "مستهتر".

– ماركوس، هل كل هذا لأنني تأخرت؟

قلتها مقتربًا منه بحذر فأشاح بوجهه عاقدًا ما بين حاجبيه ثلاث عُقَد، تحتاج كل عقدة منها سنة كاملة حتى تُحَلّ، فقلت مازحًا في محاولة يائسة لحل عقدة منها:

– ماركوس، أنا مريض بسرطان الاستهتار كما قلت أنت سابقًا، فهل السرطان له علاج؟

حدث ما توقعت وبدلًا من أن تصبح العُقَد عقدتين زادت عقدتين فأصبحت خمس عُقد، فقررتُ حل تلك العقد جُملة بجُملة واحدة

فقلت:

– هل ترى أنه من الذكاء مواجهة هذه القضية المعقَّدة بهذه العُقد التي تُزيِّن جبهتك؟

كانت الركلة في منتصف الجبهة تمامًا فانحلَّت عُقد جبهته الخمسة، لكن للأسف انحلَّت عقدة لسانه أيضًا وقال:

– هل قلت الذكاء؟

قالها بسخرية واضحة، كان يقصد بالطبع ما حدث بيني وبين الحمار اللعين الذي حاولتُ تحويله إلى إنسانٍ ناطق فردَّ لي الجَميل ونهق نهيقًا جميلًا، فقام ماركوس بطردي أنا وحماري من الغرفة بل ونظر لي نظرة معناها "لا فرق بينك وبين حمارك" في تلك اللحظة مرَّت أمامي مقولة فيثاغورث: "لا تجادل الأحمق فقد يخطئ الناس في التفريق بينكما" مرَّت راكبة على ظهر الحمار المتخلف عقليًا وهي تبتسم لي ابتسامة صفراء فكدتُ أفقأ عيني من شدة الغيظ لكني قررتُ أن أواصل الملاكمة حتى لا أخرج من الحلبة بلا فوز وبلا عيون فوجَّهتُ إليه لكمة شديدة قائلًا:

– هل استطعت انتزاع معلومةً ما من فم أي شخص ممن قمتَ باستجوابهم بالأمس؟

فاجأني بلكمة يسارية رهيبة حين قال ساخرًا:

– أعترف أن يدي لم تخرج بمعلومة من فم أحدهم لكن على الأقل خَرَجَت سليمة.

كان يلمِّح لي أن الحمار اللعين قد قضم يدي عندما حاولتُ انتزاع المعلومات من فمه، تلك اللكمة اليسارية الماركسية كان لا بد من أن أقابلها بلكمة يمينيَّة متطرِّفة، كان إلقاء طُرفة هو الحل الوحيد لتشتيت انتباه ذلك الكائن الفضائي في تلك الحلبة اللعينة فقلت:

– عزيزي ماركوس هناك مثَل إنجليزي يقول: "إذا ارتفعت الأصوات بالنقاش المرير حول أحد الحمير فذلك يشبه النهيق إلى حدٍّ كبير" فدعنا ننهي هذا النقاش من فضلك حتى لا نتحول إلى حمير.

المثل الإنجليزي كان من تأليفي والطريف أن ماركوس الذي لم يبتسم ابتسامة كاملة منذ عشرين سنة على الأقل افترشت الابتسامة وجهه فأسرع بوضع كفيه على وجهه مواريًا العار، فالتبسُّم عند ذلك الكائن الفضائي كان يعتبر عارًا مُشينًا، لكن اللوم لم يكن عليه هو، اللوم كان على الابتسامة المجرمة التي تجرأت وافترشت وجهه، ألا تعلم تلك المجرمة أن التبسُّم يخالف المبادئ الماركسية؟

وقفتُ في منتصف الصالة أنظر إلى الجَدْي الذي وقف يبحلق في وجهي هو الآخر في المرآة فقد تحوَّلتُ بفضل الكائن الفضائي ماركوس إلى جدي تعيس بعدما سحلني سحلًا طوال اليوم حتى أنه منع شرب

القهوة!

كان من حقي أن أتساءل ما الحيوان الذي يقف خلف الجدي في طابور الحيوانات الطويل، كان من حقي أن أعرف ما الحيوان الذي سأتحول إليه في الساعات المقبلة بعدما تحولتُ إلى عددٍ لا بأس به من الحيوانات في غضون أيام قليلة منذ أن توليتُ التحقيق في تلك القضية الملعونة، ابتداءً بالسمكة التي كانت تسبح في شارع فوكسهول بريدج تطارد الرجل الذي اتَّضح بعد ذلك أنه ليس صاحب الرسالة مرورًا بالأسد منزوع المخالب والأسنان الذي ضربه على قفاه حملٌ وديع وسرق منه حقيبة نقوده، مرورًا كذلك بأبي سوم فيرجينيا الأمريكي الذي أنقذني تكتيكه الرائع "تصنُّع الموت" من زوجتي المفترسة، مرورًا أيضًا بالثعلب المكار الذي تحولت إليه مرتين متتاليتين وأخيرًا ها أنا ذا جديٌ لعين غائر العينين ينظر بهما في جميع الاتجاهات مرتعدًا مترقبًا انقضاض الغزالة المفترسة مسنونة اللسان من أي مكان..

الصمت الرهيب الذي خيَّم على المكان لم يكن له معنى إلا أحد احتمالين:

إما أنها تكمن لي خلف باب من تلك الأبواب، وإما أنها بالخارج وعملًا بالمقولة العسكرية "خير وسيلة للدفاع هي الهجوم"

قررتُ مداهمة جميع الغرف المغلقة بجيشي الممتلئ بالفرسان

الشجعان من أمثال الخوف والرعب والذعر... إلخ.

تمَّت المداهمة بنجاح ولم أعثر على الهاربة المدعوَّة مارجريت وعملًا بالمقولة الزوجية: "خير وسيلة للبحث عن زوجة هاربة هي الهروب"

قررت الهروب السريع إلى غرفة النوم قبل أن تداهم الشقة بجيشها الممتلئ بالفرسان المبهجين من أمثال: الكرب والغم والنكد... إلخ.

مثانتي كانت ممتلئة ولا بد من إفراغها أولًا، بسرعة البرق خلعت معطفي الذي كان يضايقني كلما دخلتُ إلى الحمَّام حين لاحظت أن الرسالة تكاد تسقط من جيب المعطف، فأخرجتها ووقفت أتأمل المكتوب فيها لبضع ثواني، ثم أعدتها إلى مكانها تاركًا المعطف على المنضدة..

خرجتُ من الحمَّام بعد دقائق فالتقطتُ المعطف بسرعة متجهًا إلى غرفة النوم حين سقطت الرسالة على الأرض، فالتقطتها ملقيًا عليها نظرةً أخرى وما إن وقعت عيناي على المكتوب حتى كدتُ أقع على الأرض من هول الصدمة فالرسالة كانت:

رسالة أخرى تمامًا

***

هرولتُ كالمجنون في جميع الاتجاهات فتأكَّد لي أن جميع نوافذ الشقة مُغلقة تمامًا، لم أجد بنافذة من النوافذ ثقبًا يتسع لصرصور فضلًا عن إنسان، فقط وجدتُ سؤالًا واحدًا ينتظرني عند كل نافذة لكي يثقب رأسي، إذا كانت النوافذ كلها مغلقة فمن أين دخل الشخص الذي وضع تلك الرسالة في جيب معطفي؟!

سؤال أصعب بكثير من أي معادلة لوغاريتمية..

الشك لم يتسرَّب إليَّ من خلال باب الشقة، ببساطة لأنني أنا الذي أغلقته بيدي، أغلقته بيدي بالمفتاح الذي لم يكن هناك نسخة أخرى سواه!

السؤال الأهم والذي كان يتجوَّل في رأسي في صورة ذبابة مستفزة هو:

من الذي يضع تلك الرسائل؟! من الذي استبدل الرسالة الأولى برسالة أخرى ووضعها في جيب معطفي؟!

كانت هناك إجابة واحدة منطقية وغير منطقية في الوقت نفسه، وهي:

أنا!

تلك كانت الإجابة الوحيدة المنطقية لأنني كنتُ الوحيد الموجود داخل الشقة، وفي الوقت نفسه تلك الإجابة لم تكن تمتُّ إلى المنطق بصلة لسبب بسيط جدًا هو أنني لم أضع الرسالة...

"شارع أكسفورد - منزل رَقْم ١٧ - أداة الجريمة"

كان ذلك فحوى الرسالة الجديدة التي وقفتُ ممسكًا بها أمام المنزل رَقْم ١٧ بشارع أكسفورد الطويل الذي يمتد لمسافة ٢ كيلو متر تقريبًا، كان من الواضح أن المنزل لرجل من الأثرياء أصحاب الأيادي الطويلة، كنت متخوِّفًا بشدة أن يكون من أصحاب الأرجل الطويلة أيضًا مثل السيد جاك الذي ركل مؤخرتي، لم أكن مستعدًا لأن أُركل مرةً أخرى..

كان أمامي ثلاثة اختيارات بعدما اكتشفتُ وجود تلك الرسالة، ولأن المفاجأة كانت مذهلة فقد تعطَّل ذهني وأغلق أبوابه تمامًا في وجه الاختيار الأول وكذلك الاختيار الثاني اللذان حاولا القفز إلى ذهني بدون جدوى، فلم يأتِ إلى ذهني مطلقًا أن أذهب إلى ماركوس ولا أن أتصل به هاتفيًّا بالرغم من أن الهاتف كان على المنضدة التي كان بيني وبينها نصف متر فقط!

ولأن ذهني كان خارج نطاق الخدمة فقد اخترتُ الاختيار الثالث والأسوأ بدون تفكير، فانطلقتُ فورًا بعدما قرأت الرسالة حتى وجدتني أقف أمام المنزل متردِّدًا هل أدخل وحدي أم أذهب إلى ماركوس أولًا..

كانت الساعة قد تخطَّت الثامنة والنصف مساءً بدقيقة واحدة حين حسمتُ أمري، فقررت الذَّهاب إلى ماركوس لكني عندما حاولتُ تحريك قدمي إلى الأمام لم أستطع مطلقًا فقد رأيت أمامي في تلك اللحظة مشهدًا جعلني أتسمَّر في الأرض بلا حِراك..

رأيتُ ماركوس متجهًا إلى داخل المنزل!

كنت أعشق روايات الجريمة بشكلٍ لا يصدَّق بل إن حبي لروايات الجريمة هو الذي دفعني إلى العملً كمحقِّق، في روايات الجريمة الجيدة لا تستطيع تحديد المجرم، يظل المجرم المُلثَّم يتجول أمامك بين صفحات الرواية دون أن تراه، ليس مسموحًا لك بأن تراه إلا في آخر الفصل الأخير وعادةً ما يكون هو الشخص الوحيد الذي لم يطرق باب مُخيِّلتك بل لو طرق باب مخيلتك تُصرّ على ألاَّ تفتح له مطلقًا، لم يكن هذا الوصف منطبقًا على أحد في تلك اللحظة مثلما كان منطبقًا على ماركوس..

انطلقتُ وراءه بأقصى سرعة وعندما وصلتُ إلى البوابة وجدته قد تركها مفتوحة فتذكرتُ مقولته لي: "لا تدخل من بابٍ تُرك لك مفتوحًا، إنه فخ"

كانت مقولات ماركوس عن الجريمة رائعة بشكلٍ لا يصدَّق، سقطت مقولاته الرائعة في تلك اللحظة من عيني فبدتً كساقطات

تريد أن تواري جرائم سيِّدها، بدت لي مقولته الرائعة عند البوابة كساقطة تريدني ألاَّ أدخل حتى لا أُلقي القبض على سيِّدها ماركوس متلبِّسًا.

هل كان ماركوس يواري جرائمه المروِّعة بتلك المقولات الرائعة؟ قلتها في نفسي منطلقًا وراءه حتى وصلتُ إلى الباب الداخلي الذي دخل منه أمامي، فتفاجأتُ بأنه قد تركه مفتوحًا هو الآخر فدخلتُ وراءه غير ملتفت إلى الساقطة التي جاءت تتراقص أمامي مرةً أخرى، كنت مصمِّمًا على ملاحقته حتى النهاية أو بمعنى أصح حتى نهايتي، فقد كنت أعلم أن احتمالية نجاتي لا تتعدَّى رَقْم تافه جدًا قريب من الصفر بالمائة، لم تمر لحظة واحدة حتى تلاشى الرَقْم التافه وأصبحت احتمالية نجاتي بالفعل صفر بالمائة عندما وضعتُ يدي في جيب بنطالي فلم أجد المسدس..

معلومة مفيدة رقم ١:

ماركوس كان أمهر كائن حيّ في استخدام المسدس.

معلومة مفيدة رقم ٢:

لم يكن محتملًا ولو بنسبة ضئيلة أن ينسى ماركوس مسدسه، فماركوس كان من الممكن أن ينسى بنطاله فيخرج إلى الشارع بدون بنطال لكنه قبل أن يخرج سوف يُخرج المسدس من جيب ذلك البنطال

حتى يأخذه معه.

معلومة مفيدة جدًا رقم٣:

ماركوس اصطاد ذبابة كانت تزعجه بطلقة واحدة من مسدسه حينما كُنا معًا في منزله يومًا ما!

الذي زاد الأمر سوءًا أن أُذُن ذلك الكائن الفضائي كان لديها قدرة عجيبة على تحديد أماكن الأعداء، كان ذلك يعني أنه سوف يحدِّد مكاني بسهولة إذا لم أتحول فورًا إلى حيوان لا يُسمع له دبيبًا على الأرض، في تلك اللحظة فقط عرفتُ ما هو الحيوان الذي كان يقف خلف الجَدي في طابور الحيوانات اللعين..

دخلتُ خلفه أتسحَّب في صورة قِط حين توقَّف فجأة في منتصف الصالة الفسيحة ذات الأعمدة الضخمة، والتي اختبأتُ مسرعًا خلف واحد منها كاتمًا أنفاسي مترقِّبا عطسة مستفزة تفضحني، لكنَّ قلبي الطفولي أصرَّ على أن يتولَّى هو تلك المهمَّة فبدأ يلهو بطبلته التي اعتاد أن يدقَّ عليها بشدة في مثل ذلك الموقف الحَرِج تحوَّلت دقَّاته بمرور الوقت إلى دقَّات عالية جدًا وغير معقولة فوضعتُ يدي على صدري مرعوبًا محاولًا تهدئة القلب اللعين أو إسكاته إلى الأبد حين اكتشفتُ أن تلك الدقَّات العالية لم تكن دقَّات قلبي، وإنما كانت دقَّات كعبها العالي وذلك حين توقَّفت فجأة قائلةً لماركوس:

- لم تتأخر عن موعدنا لحظة واحدة، إني مندهشة

كانت دهشتها بجوار دهشتي مثل نملة صغيرة بجوار فيل ضخم فقد كان تصديق أن ماركوس مجرم أسهل بكثير من تصديق أن ماركوس على موعد مع امرأة، في الحقيقة لم أستطع ابتلاع الفكرة بالكامل حتى آخر لحظة، فكرة أن ماركوس مجرم، ماركوس لا يُبتَلع بسهولة، كان ذيل الأسد ماركوس لا يزال محشورًا في حلقي لم أستطع ابتلاعه، الكارثة أنني أصبحتُ مضطرًا لابتلاع فيلًا كاملًا بخرطومه إذ كان عليَّ تصديق أن ماركوس عدو المرأة على موعد مع امرأة!

ألقيتُ القبض في آخر لحظة على الضحكات التي حاولت التفلُّت مني فقد كان يهمني سماع بقيَّة حديثهما، كنت أتوق بشدة لسماع ماركوس لأول مرة في حياتي وهو يتحدَّث كذكر لا كمحقِّق.

لقد كنتُ أظن أن الجريمة هي الأنثى الوحيدة في حياتك يا عزيزي ماركوس، قلتُ ذلك في نفسي مبتسمًا حين ردَّ ماركوس على المرأة قائلًا:

- أرجو ألا أكون قد أزعجتكِ بزيارتي في هذا الوقت.

ماذا تقول أيها المبتدئ الأحمق ماركوس، هل هذا كلام يقال لأنثى؟! قلتها في نفسي حين زاد الطين بلَّة قائلًا:

- لقد جئتُ من أجل أن نتحدث قليلًا عن زوجكِ يا مدام جيسيكا.

ماذا تقول أيها الأحمق؟! هل جئت إلى هنا حتى تتحدث معها عن زوجها؟! قلتها في نفسي حين زادت هي الطين بللًا بدموعها، فقالت وهي تبكي:

– إنَّ زوجي ويليام لم يكن يستحق كل هذا

في تلك اللحظة فقط عرفت أن ذلك ليس لقاءً بين ذكر وأنثى، بل بين محقِّق وزوجة رجل قتيل وبالتحديد القتيل المدعو السيد "ويليام سميث" والذي كما قالت لم يكن يستحق كل ذلك العدد المخيف من الطعنات.

– لقد أخَّرنا استجوابكِ كل تلك المدّة نظرًا للحالة الصعبة التي كنتِ تمرِّين بها.

ردَّت عليه وهي تمسح دموعها قائلة:

– شكرًا لك، تفضَّل في غرفة الجلوس

اتَّجها معًا إلى غرفة الجلوس، فأخرجتُ الرسالة رافعًا إياها واقتربتُ منهما قائلًا:

– من الأفضل يا ماركوس أن تبحث معي عن أداة الجريمة بدلًا من الجلوس معها.

التفتا متفاجئَين فلاحظتُ على الفور الجروح القطعيَّة التي أحدثتها

أداة الجريمة في وجه المرأة حين نطقتُ بها، إذ تغيَّر وجهها بصورة ملحوظة، الأمر الذي كان يدل على صلتها الوثيقة بتلك الأداة.

كانت الرسالة تبدو كطائر أبيض مقطوع الذيل عندما طيَّرها ماركوس في الهواء بشدة بعدما قرأ المكتوب فيها، وبدأ البحث في كل مكان كالمجنون..

بعد مُدَّة من البحث أقعدني اليأس بجوار خزانة صغيرة فخمة في زاوية بعيدة من زوايا الصالة الواسعة، فاقتربت منها متأمِّلًا فخامتها فلاحظت أن هناك فُرجة بينها وبين الحائط، فدقَّقتُ النظر فلاحظتُ أن لون الجانب المواجه للحائط من الخزانة مختلف قليلًا عن لون الخزانة فأخَّرتُ الخزانة عن الحائط لكي أكتشف وجود شريحة خشبية رقيقة تغطِّي الجانب المواجه للحائط لاحظتُ كذلك انبعاجًا في الأسفل، فنزعتُ الشريحة بشدة لأتفاجأ بسقوط أداة الجريمة على الأرض، كانت سكِّينا عريضة أشبه بساطور ملطَّخة بالدماء فناديتُ ماركوس بأعلى صوتي رافعًا إياها، فلما رآها معي جاء يجري كمصاص دماء لم يتذوَّق طعم الدماء منذ أيام طويلة ووقف متأمِّلًا الدماء الكثيرة، ثم التفت إلى المرأة ورماها بطلقتين من عينيه فسقطت جالسةً على الكرسي الذي بجوارها في حالة من الذهول...

في اليوم التالي مباشرةً ظهر تحليل الحمض النووي مشيرًا إلى أن الدم

الموجود على أداة الجريمة خاص بالمجني عليه السيد "ويليام سميث"، كما اتضح أيضًا أن هناك تطابقًا تامًا بين البصمات الموجودة على أداة الجريمة وبين بصمات جيسيكا، وطبعًا كان الدافع وراء ارتكابها تلك الجريمة البشعة معلنًا عن نفسه، وهو الحصول على جميع أموال الزوج القتيل خاصَّة أن القتيل لم يكن له أبناء يشاركونها في الميراث، والذي جعل التهمة أشد التصاقًا بها أنها كانت في العَقد الرابع من عمرها الأمر الذي جعل أصابع الاتهام تشير إليها بأنها قتلت زوجها من أجل التمتُّع بأمواله مع رجل آخر وبداية حياة جديدة..

كانت المعضلة الوحيدة في القضية هي عدد الطعنات غير المعقول والذي حاز المرتبة الأولى في تاريخ جرائم إنجلترا كلها، لماذا تطعنه ثمان وتسعون طعنة بينما تستطيع الحصول على أمواله بطعنة واحدة؟!

حلَّ ماركوس تلك المعضلة من قبل بأن قال: إن الدافع الحقيقي لارتكاب الجريمة كان الحصول على الأموال، لكنَّ المجرمة أرادت إخفاء ذلك الدافع بدافع آخر وهمي وهو الانتقام من خلال طعن الزوج كل ذلك العدد من الطعنات، فتبدو الجريمة وكأن شخصًا ما أراد الانتقام من السيد ويليام لسببٍ ما، فطعنه ثمان وتسعين طعنة..

وقفت جيسيكا بعد أيام في قفص الاتهام داخل المحكمة العريقة "أولد بيلي" أقدم وأشهر محاكم بريطانيا الجنائية، والتي يُطلق عليها

"مسرح دراما القضاء البريطاني" بسبب أنها تفصل في القضايا الجنائية الكبرى الأكثر إثارة للرأي العام في لندن خاصَّة وفي إنجلترا بصفةٍ عامَّة، صعدت جيسيكا على خشبة المسرح حولها جموع غفيرة من المشاهدين في ساحة المحكمة، وفي الشوارع أمام الشاشات الكبيرة، وفي البيوت أمام الشاشات الصغيرة، ينتظرون مشهد النهاية في تلك المسرحية الدموية..

حُكم على جيسيكا بالسجن مدى الحياة، كانت تلك هي أشد عقوبة تستطيع المحكمة معاقبتها بها، ليس هنا شيء في إنجلترا يسمَّي الإعدام، أثلج ذلك الحكم صدور غالبيَّة الشعب وبقيت بعض الصدور الأخرى محترقة، تلك الصدور التي يرى أصحابها أن العدل يتلخَّص في جملة واحدة: "من قتل يُقتَل" حتى ذلك الحُكم كان البعض يرى أنه ليس عادلًا، كانوا يرون أن جيسيكا لابد أن تُقتل ثمان وتسعون مرة بعدد الطعنات التي وجَّهتها إلى زوجها..

لم أكن متفاجئًا عندما تلفَّتُّ حولي فلم أجد ماركوس في ساحة المسرح، إنها لخطيئةٌ كبرى إذا شاهد ماركوس مسرحيةً ما حتى لو كانت تلك المسرحية في مسرح القضاء البريطاني "أولد بيلي"، كنت أعلم أين هو بالطبع.

ذهبتُ مسرعًا إلى مبنى التحقيقات الجنائية ودخلتُ عليه المكتب باسطًا ذراعيَّ مبتسمًا، وقلت:

ها قد أُسدل الستار على آخر فصول المسرحية اللعينة

***

(الفصل الأخير من مذكِّرات ماركوس)

كُتبت تلك المذكرات بعد الأحداث بعشر سنين

دخل جون عليَّ المكتب باسطًا ذراعيه مبتسمًا وقال:

ها قد أُسدل الستار على آخر فصول المسرحية اللعينة.

هكذا كان يظن جون، وهكذا كنتُ أظن أيضًا، لم أكن أعلم أنها بداية الأحداث، لم يكن يعلم جون نفسه أنه بطل المسرحية الحقيقي، كانت الأحداث المثيرة التي جاءت بعد ذلك أبعد بكثير من أن يتصورها أذكى العقول البشرية، حقًا لا أستطيع وصف ما حدث، لا أستطيع وصفه إلا بأنه لا يوصَف..

بعد الحكم على جيسيكا بأسبوع واحد فوجئتُ بأنها تطلب زيارتي، كان طلبًا غريبًا جدًا بالنسبة لي، ذهبت إليها في الثانية والنصف ظهرًا..

وجدتها منزوية في غرفتها شبه المظلمة ذات النافذة الضيقة، قلتُ متعمدًا ألا أنظر نحوها:

– من فضلكِ ليس لديَّ وقت، ماذا تريدين مني؟

اقتربت مني، وقالت:

– أنا بريئة.

نظرت إليها غاضبًا، وقلت:

– هل طلبتِ زيارتي حتى تقولي لي إنك بريئة؟

أردفت قائلًا:

– إنكِ لم تتفوهي بهذه الكلمة حتى وأنت في قفص الاتهام.

– وهل كنتم ستصدقونني؟

قالتها محدقة في وجهي، فاتجهتُ ناحية الباب قائلًا:

– لقد أضعتِ وقتي.

– لديَّ معلومات قد تقودك إلى المجرم الحقيقي

أوقفتني عبارتها المستفزة، فالتفتُّ إليها قائلًا:

– المجرم الحقيقي هو أنتِ يا مدام جيسيكا، لقد وجدنا بصماتك جنبًا إلى جنب مع دماء زوجك على أداة الجريمة.

اقتربت مني وقالت بعينين متوسِّلتين:

– أرجوك لن تخسر شيئًا إذا سمعتني

زفرت مغمضًا عينيَّ وبالكاد قلت:

– أسمعكِ يا مدام جيسيكا.

بدأت تسرد ما حدث فقالت:

– أتذكر جيدًا الليلة التي خرجت فيها مع ويليام نتمشى معًا، كان الضباب كثيفًا لدرجة أننا كنا بالكاد نرى بعضنا، وبعدما تمشينا مسافة طويلة تفاجأت بشخص هجم عليَّ من الخلف وضربني على رأسي ضربة شديدة فأغمى عليَّ وسقطتُ على الأرض، وعندما أفقت وجدتُ ويليام بجواري مطعونًا بلا رحمة فقمت أجري مفزوعة لأنني سوف أُتَّهم بقتله، فأنا المستفيدة الوحيدة من موته، بعدما وصلتُ إلى المنزل أحكمتُ غلق البوابة واتجهتُ إلى الداخل وأنا أبكي بشدة وفي أثناء عبوري الحديقة تعثرتُ بشيء حاد كاد يشق قدمي نصفين، اكتشفت أنها سكين محشورة بين النباتات يبدو من منظرها أنها سقطت من شخص ما، لم أكن لأراها لولا أن تعثرت بها فالضوء كان شبه منعدم، لم يكن هناك إلا الضوء الخافت القادم من عمود الإنارة البعيد خارج المنزل، عندما دققتُ النظر اكتشفت أن السكين ملطخة بالدماء فصرخت مفزوعة ووقفت في مكاني مرعوبة لا أدري ماذا أصنع، وأخيرًا قررت إخفائها بين الزروع في مكان مخفي داخل الحديقة..

– هل هذا كل ما في الأمر؟

سألتها بعد ما صمتت، فأومأت برأسها وهي تقول:

– لم أكذب في حرف واحد، صدقني.

لم يكن عليَّ تصديقها بالطبع، كان عليَّ أن أكذِّبها فالمحكمة قد أدانتها

بالدليل القاطع الذي لا يقبل أدنى شك.

– مدام جيسيكا، ما علاقتكِ بأداة الجريمة التي وجدناها بالمنزل؟

فاجأتها بالسؤال فوارت وجهها بكفيها وقالت وهي على وشك البكاء:

– لا أدري، صدقني لا أدري.

قلت بعدما قربت وجهي من وجهها:

– بصماتك موجودة على السكين يا مدام جيسيكا، هل تعرفين معنى هذا؟

معناه أنك قد أمسكتِ بالسكين وأنت الآن تنفين صلتك بها، فكيف أصدقك.

لم أتلقَّ ردًا فقلتُ:

– لماذا لم تذكري هذه القصة في أثناء المحاكمة؟

ردت بثبات انفعالي:

– عندما علمت أنكم وجدتم بصماتي على أداة الجريمة ذُهلتُ ولم أستطع النطق، فقد كنت أعلم أنكم سوف تكذبونني، لكني بعد ذلك قررت التمسك بالأمل؛ ولذلك طلبت زيارتك

نظرت لها متشككًا وهممتُ بالانصراف حين قالت:

– لقد وثقتُ بك، أرجوك ابذل كل جهدك، لقد جاء صديقك وأصرَّ على مقابلتي لكنني كنت مصرَّة على مقابلتك أنت؛ فأنا أعلم أنك أفضل محقق في لندن.

قلتُ متفاجئًا:

– هل تقصدين جون؟

أومأت برأسها، فقلت:

– ومتى حدث هذا؟

قالت بعدما لاحظت اهتمامي الزائد:

– لقد جاء في الصباح.

ما الذي يجعل جون المستهتر يكلِّف نفسه ويأتي إلى هنا بالنيابة عني بدون أن يخبرني بل ويصرَّ على مقابلتها، ذلك ما قلته في نفسي قبل أن ألتفت إليها قائلًا:

– مدام جيسيكا إذا جاء جون مرة أخرى فاسمحي له بمقابلتك، وأخبريه بكل ما سمعتُ منك منذ قليل ولا تخبريه قط بأنني جئت إلى هنا.

أومأت برأسها محدقة في وجهي بعينين فيهما سؤال واحد: هل تشك

في صديقك جون؟ فلم أجبها وقمتُ منصرفًا...

- أريد منك أن تذهب إلى تلك المرأة بالنيابة عني

قلت العبارة لجون الذي أخفى سعادته قائلًا:

- ولماذا؟

قلت بلا مبالاة مصطنعة:

- لا أريد أن أرى وجهها.

الكارثة أن جون لم يخفِ سعادته فقط بل أخفى عني أيضًا أنه ذهب إليها في الصباح كما أخبرتني، وذلك أكد شكوكي تمامًا.. كنا في منتصف الليل تمامًا عندما تتبَّعته خطوة بخطوة حتى وصل إلى منزل السيد ويليام، وقف متلفتًا يمينًا وشمالًا ثم تسلق البوابة الحديدية واتجه نحو المكان الذي وصفته له جيسيكا، ثم بدأ البحث عن السكين بين الزروع وقبل أن يجدها تفاجأ بي أقف بجواره قائلًا:

- ماذا تصنع هنا يا جون؟

لم ينطق بكلمة، فقط كان ينظر إليَّ مذهولًا، مددتُ يدي واستخرجتُ السكين الملطَّخة بالدماء ناظرًا إليه بعيون غاضبة ملطَّخة بلون الدَّم.. كانت البصمات التي على السكين مطابقة تمامًا لبصمات جون، وجدنا أنفسنا أمام أداتين للجريمة أداة عليها بصمات جيسيكا وأداة عليها

بصمات جون، كان ذلك دليلًا قاطعًا على أنهما قد اشتركا في الجريمة، الأمر الصادم هو أنني اكتشفتُ فيما بعد أنهما بريئان! لقد عرفتُ أخيرًا من هو المجرم الحقيقي، عرفتُ مَن المجرم الذي كان يرسل الرسائل إلى جون، نعم لقد كان المجرم نفسه هو من يرسل تلك الرسائل إلى جون، عرفت كيف وضع الرسالة الأخيرة لجون في جيب معطفه بالرغم من أن الشقة لم يكن بها ثقب واحد يتسع لحشرة صغيرة فضلًا عن إنسان كما حكى لي جون وقتها، عرفت كل ذلك عندما دخلتُ على جون حبسه الانفرادي قائلًا:

- كيف حالك الآن؟

نظر إليَّ نظرة صادقة وقال:

- ماركوس، لماذا أنا هنا؟

لم أستوعب ما قال، فقلتُ:

- لماذا أنت هنا؟ ألا تعلم حقًا لماذا أنت هنا؟! الألاعيب لن تفيد الآن يا جون.

نظر إليَّ بالنظرة الصادقة نفسها وقال:

- صدقني يا ماركوس، أنا لا أعلم بالفعل لماذا أنا مسجون الآن

لم أكن أصدق ما أسمع، قلتُ بهدوء شديد ملجمًا غضبي بصعوبة:

– لا تعلم لماذا أنت مسجون؟ لا تعلم أنك مسجون لأنك قتلت السيد ويليام سميث؟ جون، لقد أمسكت بك بنفسي وأنت تحاول استخراج أداة الجريمة التي عليها بصماتك من حديقة السيد ويليام.

كان يحدق في وجهي بعينين مندهشتين كأنه يسمع عن تلك الأشياء لأول مرة في حياته، ثم قال:

– ماركوس، ماذا تقول؟!

لم أستطع إلجام غضبي أكثر من ذلك، فصرختُ في وجهه بأعلى صوتي قائلًا:

– هل أنت مجنون؟!

– بالفعل أيها المحقق، صديقك مجنون.

قالها مقهقهًا بصوت آخر تمامًا غير صوته، فقلتُ مذهولًا لا أفهم شيئًا:

– جون ما الذي...

قاطعني بحسم:

– أنا لستُ جون.

سادت لحظات من الصمت ظننتُ خلالها أن جون يدَّعي الجنون مقلِّدًا صوت شخص آخر حين فاجأني بصوت امرأة قائلًا:

- أهلًا بك يا عدو المرأة، لقد سُرِرتُ بلقائك

وقبل أن آتي بأي رد فعل، فاجأني بصوت طفل صغير وقال:

- أرجوك لا تغضب منها يا عمي ماركوس، فجون هو صاحب مقولة: "عدو المرأة" هذه، دائمًا ما يرددها عندنا هنا.

قلت مذهولًا:

- عندكم؟ عندكم أين بالضبط؟!

تفاجأت بالرجل الذي كلمني أول مرة يضحك قائلًا:

- عندنا في بيتنا، صديقك جون هو بيتنا أيها المحقق.

مرض تعدُّد الشخصيات؟!(٥) خرجت العبارة مني فجأة..

كنت أسمع عن ذلك المرض لكنني لم أتصور قط أن أرى ذلك بعيني وأسمعه بأذني.

- إذًا أنت من ارتكبت هذه الجريمة أيها المجرم.

قلتها بغيظ محترق فردَّ مقهقهًا:

---

٥ مرض تعدد الشخصيات المعروف حاليًا باضطراب الهُوِيَّة التفارُقي، هو مرض عقلي نادر يصاب به في الغالب أناس تعرضوا لمعاملة سيئة جدًا خلال مرحلة الطفولة، فتظهر نتيجة لذلك عدة شخصيات تعيش بداخل الشخص المريض، من ضمن أعراض ذلك المرض: فقدان الذاكرة الذي يكون إما نسيان فترات زمنية سابقة أو نسيان بعض الأحداث اليومية. من الممكن علاج ذلك المرض بالعلاج النفسي المكثف، فهو مرض قابل للشفاء.

- هل قلتَ المجرم؟

كان على حق، لقد كان من الخطأ أن أصفه بالمجرم إنها مجرد شخصية وهمية ناتجة عن مرض عقلي ليس لها وجود في الواقع، تمامًا مثل الأشياء التي يراها ويسمعها مريض الفصام والتي يختلقها عقله وهي في الحقيقة ليس لها وجود في الواقع.

- وهل هاتان الشخصيتان قد اشتركتا معك في ارتكاب الجريـــ...

- أنا المسيطر هنا في مثل هذه الأمور.

قاطعني منفعلًا بشدة، ثم أردف بطريقة مستفزة جدًا:

- لقد كان لي الشرف وحدي.

قلتُ مُستَفزًّا:

- تستعمل جسد شخص لكي تطعن شخصًا ثمان وتسعين طعنة، ثم تسمي ذلك شرفًا؟! أيُّ شخصية أنت؟

كان كالصخرة لم يتأثر بكلامي، فأردفت قائلًا:

- وطبعًا أنت الذي كنت تضع الرسائل لجون.

قال بابتسامة مستفزة:

- ولم أجد أي صعوبة في ذلك.

أردف بالابتسامة نفسها قائلًا:

- أعلم أن الرسالة الثانية بالتحديد كادت تصيبكم بالجنون، لقد سيطرت على جون بعد لحظة واحدة من دخوله الحمام، ثم خرجت مستعملًا جسده فأخرجت الرسالة الأولى من جيب معطفه وأدخلت الرسالة الثانية مكانها بعدما قمت بكتابتها، ثم عدتُ إلى الحمَّام تاركًا جون يعود إلى وعيه.

- كيف ارتكبت تلك الجريمة أيها الـ...

نظر نحوي بابتسامة خبيثة حين انقطعت عن الكلام وقال:

- هل كنتَ ستقول المجرم؟

- كيف ارتكبت تلك الجريمة أيها اللاشيء؟

هل يناسبك هذا اللفظ؟

أردت احتقاره بذلك اللفظ لكني لاحظت بعد لحظة أن اللفظ يناسبه بالفعل، فهو لا شيء وليس له وجود!

- إنها فكرة لا تخطر على بال الشيطان نفسه

قالها بنظرة شيطانية، كنت أراقب ملامحه الخالية من الإحساس عندما استطرد قائلًا:

- كنت أعلم جيدًا أن السيد ويليام يعتاد الخروج من المنزل كل ليلة،

كان ذلك هو الأساس الذي بنيتُ عليه خطتي، كان لا بد من وجود زوجته جيسيكا معه حتى تكتمل الخُطّة، أيضًا كان لا بد من وجود الضباب الكثيف وقد ساعدني على ذلك أننا في عاصمة الضباب، كان يناير هو الشهر الأنسب بالطبع والذي انقضت منه عشر ليالٍ حتى جاءت الليلة المطلوبة وخرجا معًا..

تبعتهما على الفور مستترًا بالضباب حتى إذا سنحت لي الفرصة انقضضت على جيسيكا من الخلف فضربتها على رأسها بمقبض السكين فسقطت على الأرض، فانقضضتُ فورًا على السيد ويليام طعنًا بالسكين، وبعدما انتهيتُ منه اتجهتُ إلى منزله وبعدما تسلقتُ البوابة وفي أثناء عبوري الحديقة فوجئت بأنني قد نسيت جزءًا مهمًا جدًا من الخُطّة، وهو بصمات جيسيكا فكان لا بد من أن أعود مرة أخرى..

في أثناء عودتي وبسبب تسرُّعي سقطت السكين من يدي فبحثتُ عنها فلم أجدها؛ لأن الظلام كان شبه دامس، كان عليَّ إيجاد سكينًا أخرى في أسرع وقت وهنا جاء دورك في الخُطَّة أيها المحقق الفذ ماركوس، فلولاك أنت ما نجحت خطتي..

"الخُطّة بدون خُطّة بديلة مثل عين واحدة بدون الأخرى لرجل أعور، إن فُقئت تلك العين فلن يجد عينًا أخرى يصل بها إلى هدفه، خُطَّتك البديلة هي عينك الأخرى التي ستصل بها إلى هدفك يا جون"

أنت طبعًا تعرف أكثر من غيرك أيها المحقق ماركوس من قائل هذه المقولة لأنك أنت من قالها لجون، كانت هذه المقولة هي السبب في نجاح خطتي فقد كان معي سكينًا بديلة عملًا بنصيحتك ومع أنني كنت أستطيع أن أتسلل إلى داخل منزل السيد ويليام بسهولة فأحصل على سكين من داخل المطبخ إلا أن هذا الأمر لم يخطر على بالي قط وهذا يعني أن خطتي كانت ستفشل بالفعل لولا نصيحتك الثمينة، شكرًا لك على كل حال..

انطلقتُ مسرعًا حتى وصلت إلى مكان الجريمة ولطَّختُ السكين بدماء السيد ويليام، ثم أمسكت بيد جيسيكا وقبضتُ بيدها على مِقْبَض السكين حتى تظهر عليها بصماتها بوضوح فيكون ذلك دليلًا قاطعًا على أنها القاتلة، ولولا تلك السكين البديلة التي كانت معي لاستغرقتُ وقتًا طويلًا جدًا حتى أحصل على سكينٍ أخرى، وهذا معناه أنني كنت سأرجع إلى مكان الجريمة فلا أجد جيسيكا؛ لأنها ستكون قد أفاقت، وهذا معناه فشل خُطَّتي لأنها ستكون غير مكتملة بإلصاق التهمة بجيسيكا ، شكراً لك مرةً أخرى..

عدت مرة أخرى إلى منزل السيد ويليام ولحسن الحظ كان الباب الداخلي مفتوحًا فخبَّأتُ السكين بالصالة في المكان الذي وجدتموها فيه، وكادت جريمتي تستحق وصف الجريمة الكاملة لولا أنني نسيت بصماتي على السكين التي سقطت مني ووجدتها جيسيكا في الحديقة،

كانت تلك هي الثغرة الوحيدة التي بسببها ذهبتُ لاستخراج السكين والتخلُّص منها، فجئت أنت وألقيت عليَّ القبض.

بعدما انتهى من تقيُّئه نظرتُ إليه مشمئزًا، وقلتُ:

- لماذا؟

ردَّ بابتسامة متبلِّدة:

- لماذا أقتل أصلًا أم لماذا كل تلك الطعنات؟

على العموم سأجيبك على هذا وذاك، إنني أقتل لأنني أشتهي الدماء كجميع المجرمين مصَّاصي الدماء الذين قابلتهم في حياتك يا سيد ماركوس، الفرق بيني وبينهم أنني أعتبر نفسي مصاص دماء حقيقي، أظن أن إجابة السؤال الثاني قد أصبحت سهلة تمامًا الآن فأنا لم أطعن السيد ويليام ثمان وتسعون طعنة إلا لأن هذا هو أقل عدد من الطعنات في نظري يناسب مصاص دماء.

قال الجملة الأخيرة مبتسمًا ابتسامة قاتلة، فأطلقت السؤال سريعًا كالرصاصة حتى أقتل ابتسامته القاتلة فقلت:

- ولماذا ألصقت التهمة بجيسيكا؟

- حتى تكون جريمتي جريمة كاملة، فأنا أشتهي الجرائم الكاملة كما أشتهي الدماء تمامًا.

قالها وضحك ضحكة أشعلت بداخلي حريقًا لا يطفئه إلا مياه المحيط الهادئ كاملة أو ما يعادلها من الكلمات الهادئة، فقلت بهدوء شديد جدًا محاولًا إخماد الحريق:

– كيف لم يكن يعلم جون بوجودكم بداخله؟

– لأننا لم نتواصل معه مطلقًا، لو كنا تواصلنا معه كان من المحتمل أن يحاول الذَّهاب إلى طبيب وإذا نجح الطبيب في معالجته فهذا معناه أننا لن يصبح لنا وجود، لن يصبح لنا وجود في هذه الحياة.

صمت قليلًا ثم أردف:

– جون بالطبع كان يعلم أنه ليس بحالة جيدة، كان ينسى بصورة غير طبيعية، كان يتفاجأ بمتغيرات حدثت في حياته لا يعرف عنها شيئًا، لكن لم يتطرَّق إلى ذهنه مطلقًا أنه قد يكون مريضًا بمرض نادر وغريب مثل هذا.

نظر نحوي بابتسامة خبيثة وقال:

– لا تحاول إخبارهم بأن صديقك جون مريض، لا تجعلني أفقد الثقة في ذكائك إنهم لن يصدقوك، من الذي سيصدق أن هناك شخصية بداخل شخص قامت بارتكاب جريمة قتل، هذا يا عزيزي ماركوس لا يحدث إلا في رواية جريمة، ألا توافقني الرأي أنها ستكون رواية مثيرة إلى حد الجنون؟

قالها وضحك كالمجنون، ثم نظر إليَّ فجأة قائلًا:

- إنني لن أظهر لهم كما ظهرتُ لك الآن، لن أسمح بأن يذهبوا بصديقك إلى المشفى للعلاج، لن أسمح بأن ينتهي وجودي في هذه الحياة، هل تسمعني؟

لم أستطع سماعه أكثر من ذلك فتركته واتجهتُ نحو الباب، لكنه أوقفني بضحكة مستفزة بعد خطوات قليلة قائلًا:

- أنت لا تملك دليلًا واحدًا على أن هذا الحديث قد دار بيننا منذ قليل.

لم ألتفت إليه وواصلت المشي حتى إذا أصبحتُ عند الباب التفتُّ إليه ممسكًا بالمسجِّل الذي أخرجته من جيب بنطالي، وقلت:

- هناك دائمًا خُطّة بديلة أيها الحقير

اليوم التالي...

أكَّد الخبير الصوتي أن كل شخصية من الشخصيات الثلاثة لها بصمة صوت مختلفة عن الأخرى، كما أكد أن جون له بصمة صوت مختلفة تمامًا عن كل شخصية من تلك الشخصيات، كان ذلك يعني أن جون لم يكن هو المتكلِّم وأنه بريء..

نُقل جون إلى مصحَّة نفسية حتى يخضع للعلاج كما أُفرج أيضًا عن

مدام جيسيكا ووقفنا جميعًا عاجزين عن الإمساك بالمجرم الذي ارتكب تلك الجريمة البشعة؛ لأنه لم يكن هناك مجرم أصلًا فتلك الجريمة العجيبة كانت:

جريمة بلا مجرم

***